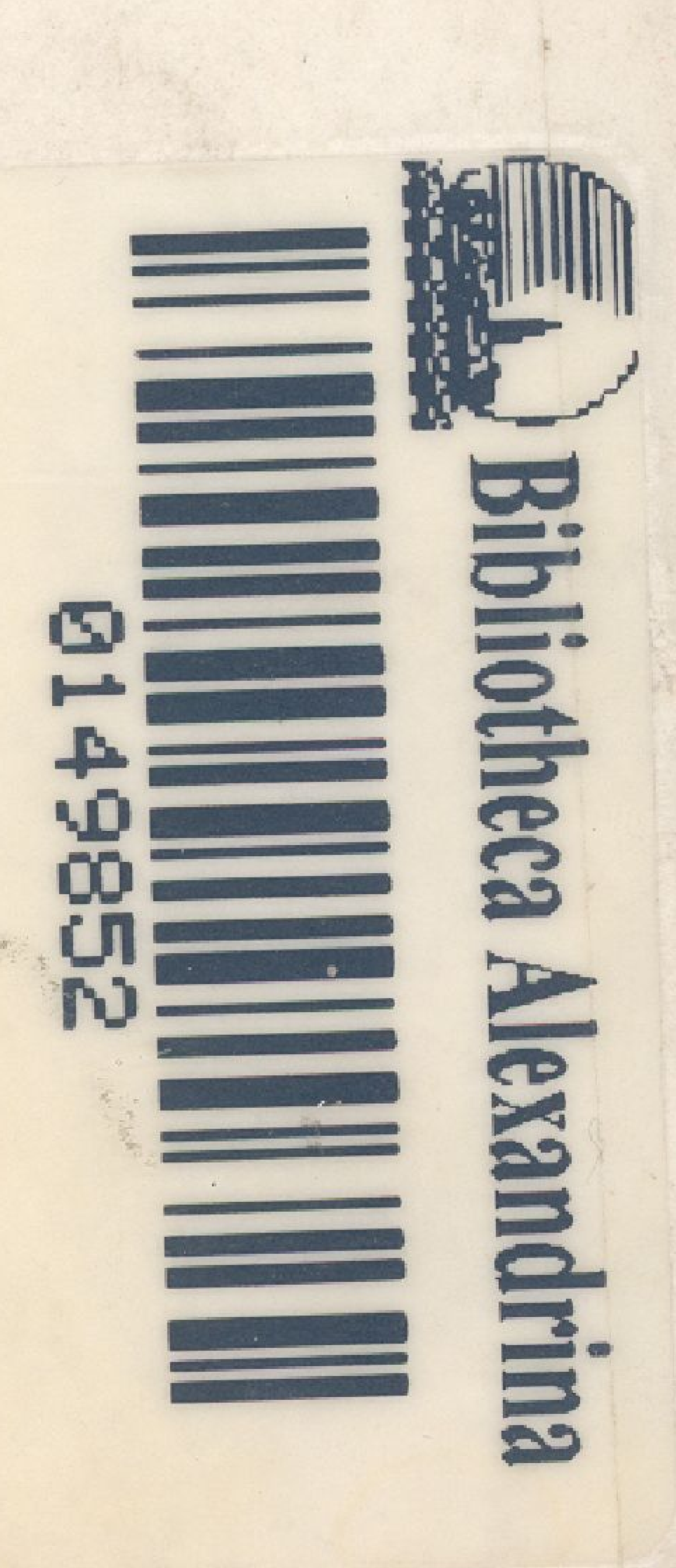


علي الجارم

خاتمة المطاف



دار المعارف



خاتمة المطاف

رقم الإيداع	١٥٩١/١٩٧٩
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٥٩٢ – ٨

١/٧٨/٤٧٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

علي الجارم

خاتمة المطاف

اقرأ ٥٨

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

خوف

لم تشهد مدينة الفسطاط منذ أن دق عمرو بن العاص بها أطنابه كهذين الفارسين ، وقد التفا بعباءتيهما السوداوين فزادا وظلمة الليل البهيم وحشة وإرهاباً ، وخطا بهما جواداهما فى حذر الخشية فلم يكن يتردد من أنفاسهما إلا ما يتردد من همسات النسيم الوادع يهز أطراف الغصون؛ اخترق الفارسان خضم الظلام كأنهما شبحان من أشباح الظلام ، لا تكاد تحس لهما حركة أو تسمع ركزاً ، أو كأنهما تمثالان من صنع الفراعين الأولين سرت إليهما روح خافتة خامدة فبقيا على ما عهد فيهما من جمود إلا ما كان من يد تقبض على العنان ، ورجل تثبت فى الركاب . صمت وإطراق مخيفان حقًا ، وليل وهدوء مخيفان حقًا ، والهدوء فى ذاته رفيق بالنفس ، حبيب إليها ، ولكنه إذا اقترن بالظلام كان مخيفاً ، وكان مبعثا للهواجس ومثاراً للخيال الجامح الذى يخلق ما شاء من صور ، ويبتدع ما أراد من تهاويل . وخير لك ألف مرة إذا لفك الليل فى مكان موحش أن تسمع حولك صخباً وضوضاء من أن تسمع هدوءاً وصمتاً ، إذا صح أن الهدوء والصمت يسمعان . ذلك لأن الهدوء مظنة المفاجأة والاغتيال ، وهل قتل الصيد إلا ذلك الهدوء الذى يتصنعه

الصائد لينقض ؟ وهل فتك القاتل بفريسته إلا بعد أن خدعها بجو من السكون الشامل ؟ وهل يسرت الفطرة للحيوانات الضارية سبيل الفتك إلا بتلك الأقدام اللينة التى لاتحس إذا مست الثرى؟

سار الفارسان فى صمت وإطراق ، وظللهما الليل بصمته وإطراقه ، فكان لا يرى إلا سراج خافت هنا وهناك يلمع فى نافذة ، ولا يسمع إلا طنين بعوضة أتخمتها الدماء فأرسلت صوتاً ضعيفاً متقطعاً ، ولا يحس إلا رفيف خفاش عاد من بعض الحدائق بعد أن نال من ثمارها .

سار الفارسان هكذا صامتين جامدين فمرا بجامع العسكر ، وكان أبو هلال السبكي مؤذن المسجد ينام فوق سطحه ، واتفق أن أيقظه بعض الهوام ، فبدرت منه التفاته ، فرأى الفارسين . وكان من كبار المخرفين يحتفظ إلى حفظه القرآن الكريم بثروة واسعة من أقاصيص الجن والشياطين ، فما كاد يرى الفارسين حتى حملق وتمتم بكل ما وعى صدره من صنوف الاستعاذات والأدعية ، فلما جاوزاه تنفس الصعداء ، وأخذ يسكن رعدة هزت أوصاله ، ويحدث نفسه فى همس لم تسمعه أذنه : أفارسان هما ؟ لا . إنهما لم يكونا فارسين ، أنا واثق بذلك ثقتى بوجود هذه المئذنة القائمة . وأنى لفارسين أن يسيرا فى هذا الليل الداجى ، وفى ليلة يسكن فيها كل رجل إلى أهله ويهدأ ليستقبل العيد مرحاً نشيطاً ؟ إنهما لم يتحركا ولم يتهامسا فكيف يكونان رجلين ؟ لقد رأيت بعينى شرراً يتطاير من أعينهما ، ورأيت

بعيني أنهما كانا يركبان أسدين لا حصانين . نعم لقد كانا أسدين ما فى ذلك شك . لقد سمعت زئيرهما بأذنى . ولقد اتجه أحدهما ببصره إلى الأعلى كأنه أحس بمكانى فأخفيت وجهى خلف شرفات المسجد .

ويلى من هذه الأرواح الشريرة التى لاتدب إلا فى حلك الظلام ! وإلى أين كان يسير هذان الشيطانان ؟ أغلب الظن أنهما لا ينتهيان إلى خير . أكان علىّ أن أصيح بملء صوتى حتى أوقظ النوام لينقضّوا عليهما ؟ لا . لو فعلت وتيقظ الناس لتسربا فى الهواء ، ولم يكن جزائى إلا أن أشتم أو أرمى بالجنون . غداً أقص على الناس هذا الخبر الرائع ، وسيكون حديث العيد ، وسوف ينالنى شيء من الخير كلما قصصته على من لهم ولوع بمثل هذه الأخبار .

ابتعد الفارسان عن جامع العسكر فمال أحدهما على صاحبه وقال هامساً :

ــ كيف نجتاز الباب الشرقى يا أبا الطيب ؟

ــ هذا ما كنت أفكر فيه يا ابن يوسف ، ومن العجيب أننا دبرنا كل شيء ولم يخطر ببال أحدنا أن الباب سيكون مغلقاً ، وأن الحارس قد يكون شريراً عنيفاً .

ــ لو كان الحارس شكساً صخاباً لقضى الأمر وكتبت علينا الخيبة .

ــ خل عنك اليأس يا ابن أخى ، فإن من خصائص هذا

الخنجر أنه يسكت الأصوات .

— لن ألوث يدى بدماء الأبرياء .

— إن من يقف فى طريق عزيمتى لا يكون بريئاً . فابتسم صاحبه ابتسامة ضاعت فى الظلام وقال :

— أخشى أن أقف فى طريق عزيمتك .

— لا تمزح يا خزاعى ، فإنما نحن فى جد عابس دميم . بم تشير إذا لم نقتل الرجل ؟

— لقد اعتدت ألا أفكر فى أمر إلا بعد أن أعرف ما يحيط به من شئون ، وبعد أن ألتقى بصعابه وجهاً لوجه ، فدعنا الآن من التفكير فلعل الله معقب فرجاً .

كان المتكلم عبد العزيز الخزاعى زعيم العرب ببلبيس ، وكان يخاطب صديقه وصفيه أحمد بن الحسين المتنبى ، وقد عزم فى تلك الليلة على الرحيل عن مصر والفرار من وجه كافور ، بعد أن أقام أربع سنوات فى ضيافة الأسود يمدحه بروائع الشعر ، ويخلع عليه من صفات الجلال والبطولة ما يندر اجتماعه فى إنسان . ولم يقصد كافوراً إلا بعد أن خدعه عماله ، أو خدع هو نفسه بأنه سينال عنده الحظوة الكاملة ، والمنزلة الرفيعة ، وأنه سيوليه إمارة تسكت صائح طموحه ، وتشفى غلة نفسه ، وترفعه من وهدة الشعراء المجتدين ، إلى قمة الملوك الحاكمين . فأقام بمصر يتزلف إلى الأسود ويتملقه ، ويضفى عليه حللا من الثناء لم ينسجها زهير لهرم بن سنان ، ويثب بنسبه المجهول دفعة

واحدة حتى يبلغ به ذروة معدّ بن عدنان. وقد أنفد الأسود حيله، فكان يستجديه ويسأله إنجاز وعده فى لطف ووداعة ، أو فى خشونة وإلحاف . وكثيراً ما كان ييأس فيثور على كافور وعلى نفسه وعلى الناس جميعاً، ويلعن الحظ العاثر الذى ساقه إلى مصر وأوقعه بين براثن هذا الزنجى اللعين ، ويبكى على أيام سيف الدولة وعلى سالف عهده بحلب ، وما كان يتقلب فيه من نعيم فى ظلال هذا العربى المجاهد الكريم الذى كان يفهم شعره، ويقدّر مكانته ، وينزله بين سمعه وبصره ، ولكنه بطر وأشر فلاقى جزاء البطر والأشر . سخط على الجنة التى كان ينعم فيها بوارف من العيش هنىء ، فخرج منها مذءوماً شريداً ، فساقه النحس وقاده نكد الطالع إلى جحيم تأجج فيها الخلف والكذب والمطل والخديعة والرياء . إلى جحيم يرى فيها نفسه وهو العربى العزوف، والشريف الأنوف ، الذى تصغر فى عينه العظائم ، ويرمى بعزيمته إلى أبعد مطارح الآمال ، مدفوعاً إلى أن يقول للقرد أنت آية الجمال ، وللكلب أنت العزة فى تمثال ، ولابن آوى أنت صفوة الصحاب ، وللثعبان أنت ملح اللمى عذب الرضاب . وأن يقول لكافور :

أنت شمس أنت بدر   أنت نور فوق نور

إلى جحيم أحرق فيها آماله ومطامحه وعزته وشممه ، وهدم فيها كل مجد بناه ، وشرف أثله وأعلاه ، وأصبح من سوقة الناس شاعراً مستجدياً بغيضاً ، يرمى إليه العبد بفتات موائده ، ويلزمه أن يقول بكل لقمة يزدردها بيتاً من الشعر فى وصف

آلائه الحسنى ، وآيات عظمته الكبرى . إلى جحيم سلط فيها كافور عليه زبانيته ينتقصونه ويزدرونه ويتجسسون عليه ، فلا ينطق بكلمة إلا وهى فى كتاب ، ولا يخطو خطوة إلا ولها عندهم حساب .

ضاق المتنبي بمصر واختنق بعد أن رأى أنه فقد فيها كل شيء ، ولم يحصل على شيء . وبعد أن رأى شبابه يولى قبل أن يبلغ من الدنيا مأرباً ، وغصن عوده يذوى وتسقط أوراقه جافة يابسة كما تسقط أوراق الخريف إذا عصفت بها الرياح ، وبعد أن رأى الشر يلمع فى عينى كافور ، ورأى النمر يستجمع للوثوب ، والصل الأسود يقترب منه رويداً رويداً ليقبله قبلة الوداع ، وبعد أن تواترت إليه الأخبار بأن كافوراً ووزيريه ابن الفرات وأبا بكر بن صالح يعدون الفخ لاصطياد الطائر الطموح المغرور ، وبعد أن جلس الجواسيس والعيون حيال داره لا يفارقونها فى صباح أو مساء .

ضاق المتنبي بمصر واختنق حينما تنكر له أهلها ، وناصبه العداء علماؤها ، ومشى له الضراء شعراؤها ، وأصبح شعره فيها سخرية فى كل مجلس ، ومتندراً فى كل سامر . ولو لم يخفف الله عنه هذه البلوى بحب عائشة بنت رشدين وصادق وفائها وحلو حديثها ، وبإخلاص أخيها صالح وكريم حفاوته ، وبمودة عبد العزيز الخزاعى ، ورعاية إبراهيم العلوى ، لبخع نفسه الحزن ، ولقضى عليه الهم ، ولذهبت نفسه فى الهالكين . كان

يحب عائشة، وكانت تحبه حبا عذريًّا قدسيًّا شريفاً يناغم عزتها وكرم أرومتها ، ويساوق شرفه وأنفته . وكان يزور بيت أخيها بين الحين والحين فيجد فى حنوها الجنة والنعيم ، وكثيراً ما كان يضم المجلس الشريف إبراهيم العلوى والشاعر ابن أبى الجوع وشيخ العرب عبد العزيز الخزاعى .

وكان للمتنبى بصيص من أمل فى أبى شجاع فاتك ، وهو من كبار قواد دولة الإخشيد ، ولكن الموت عاجله فأطفأ آخر وميض لمطامع الشاعر ، وتركه مع كافور يتنازعان البقاء ، ويتباريان فى فنون الدهاء والرياء .

لم يبق إذاً لأبى الطيب عيش بمصر ، ولم يبق له إلا أن يرحل وأن يرحل سريعاً ، فقد ينطبق عليه الفخ فى أيه لحظة ، وقد تنقض عليه الصاعقة وهو يتأمل فى جمال الأفق . ولكن ماذا يصنع وقد نصب له الأسود الأرصاد ، وبث خلفه العيون ، وعقد العزم على أن يحتبسه بمصر وألا يدع له إلى الفرار سبيلا ؟ فقد كان العبد يخشى عاقبة فراره . وكان يخاف بعد أن أذاقه عذاب الهون بمصر أن ينطلق لسانه بهجائه إذا استدبر الفسطاط ، وأن يجعل من اسمه سبة الأبد ، وأضحوكة الأجيال .

ضاقت الدنيا فى وجه المتنبى ، ورأى أن حبل كافور أخذ يقترب من رقبته رويداً رويداً ، فدبر مع أصدقائه أن يفر من مصر ليلة عيد الأضحى من سنة خمسين وثلاثمائة ، وأن يساعده على الفرار صديقه عبد العزيز الخزاعى ، وأن يرحل ابنه وعبيده

عن مصر قبل فراره بأيام .

وقد تمت المؤامرة ونفذت دون أن يخرم منها حرف ، وتسلل الشاعر فى هذه الليلة من داره فى صحبة صديقه الخزاعي بعد أن ترك تحت غطاء سريره ورقة كتب بها قصيدة فى ذم كافور نفث فيها سمه ، وشفى غليل صدره ، ولطخ كافوراً بهجاء مر مقذع يمحي جلده الأسود ولا يمحى ، وتزول بشاعة وجهه ولا يزول ، ورماه بسخرية لاذعة وكلم ممض أصغت إليه الآفاق ، وتداولته الأزمان ، وتندرت به الأجيال ، وبقى بقاء الشمس ، وترك للعبد ذكراً خالداً لوكان يطمع فى مثل هذا الخلود . ولايزال أبناؤنا وبناتنا وشبابنا وشيبنا ينصتون فى شغف وشوق إلى :

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟

فيضحكون ويطربون .

خرج المتنبي فى هذه الليلة من الفسطاط فارًّا من وجه كافور ومعه صاحبه الخزاعي ، فلما اقتربا من الباب الشرقى ألفيا عنده رجلا ضخماً مفرطاً فى الطول ، قوي العضل ، موثق الخلق ، كأنه صخرة نحتت على هيئة الرجال . ولم يكن فراج القوصى حارس الباب ، ولكنه كان ينوب فى هذه الليلة عن زوج أخته علقمة السباعي ، الذى أراد أن يرفه عن نفسه ليلة العيد بالراحة وبعض اللهو ، وكان فراج على قوة جسمه ضعيف العقل خامد الإدراك ، ساذجاً إلى حد البلاهة ، عنيفاً إلى حد الجنون ، كأنه الهر المستوحش لا تراه إلا متنمراً متوجساً ، نشأ فى أعلى

الصعيد ببلده قوص نشأة جافية ، بين جهل و بداوة وشظف من العيش ، وكأن الفطرة رأت أنه نال من قوة الجسم وركانة العضل ما فيه الكفاية وفوق الكفاية ، فلم تعطف عليه إلا بقليل من الإدراك لا يخرجه من نطاق الحيوان الأعجم إلا بشق الأنفس وبعد لأى وجهد . كان بقوص يرعى الماشية ويعيش معها : يأكل مما تأكل ، ويشرب مما تشرب ، ويسبح فى النيل كما تسبح ، وينام حيث تنام ، ويفهم لغتها وتفهم لغته ، ولم يكن بينه وبينها من الفروق إلاّ أن هذا قائم يمشى على رجلين . وتلك متطامنة تمشى على أربع . وإن أحداً لا يدرى إلى الآن أمنها أخذ عقله أم منه أخذت عقلها ؟ ولكن الناس كانوا يرون قطيع الجاموس وفيه فرّاج فيظنونه مالا سائباً ، وكانوا فى أحيان قليلة يرون فراجاً وحده ، فيعجبون كيف شرد هذا الحيوان عن القطيع ، وكيف تُرك هكذا هملا ؟ وكان شباب القرية ومجّانها كثيراً ما يتندرون به ويهارشونه : جلسوا مساء يوم عند شاطئ النيل ، وقد جاء ليسقى قطيعه ويشرب ، فسأله خبيث منهم معاجزاً :

— كم عدد قطيعك يا فراج ؟ فوقف ذاهلا وقد فتح فاه ، ثم بدا على وجهه الجد ، وقال فى تلعثم :

— عدد القطيع ؟ وماذا أريد من عدد القطيع ؟ إنه يأكل ويشرب وكفى .

— لو سرق سارق إحدى هذه الجواميس ، أكنت تعرف

إذا لم تعرف عددها ؟

ـ أعرف كل شىء ، والذى أعرفه أكثر وأكثر أن سارقاً لو جرؤ على أن يمد يده إلى جاموسة منها لشربت دمه شرباً.

ثم نظر إلى سائله فى سخرية وتحد وقال :

ـ على أن عددها من أيسرّ الأمور وأهونها ، فهذه واحدة ، وهذه واحدة ، وهذه واحدة . . .

ـ كم واحدة إذاً ؟ فأسرع بعض الشبّان ساخراً وقال :

ـ الله سبحانه وتعالى أعلم ، فالتقطها فراج فى عجلة واغتباط كأنه ظفر بالقول الفصل والرأى القاطع ، وصاح فى جذل : الله سبحانه وتعالى أعلم .

طلب الخزاعى من فراج فى رنة الآمر وعظمة الواثق أن يفتح الباب ، فنظر إليه فراج وأخذ يصعّد فيه بصره ويصوّبه ، ثم فتح الله عليه بكلمة فقذف بها فى سرعة حتى لا ينساها وقال :

ـ إنى لست حارس الباب .

ـ من أنت إذاً ؟

ـ أنا فراج . فعلم الخزاعى أن فى الرجل بلاهة ، وأن عليه أن يسير فى الأمر على نحو لا ينفّر منه ضعاف العقول . فقال :

ـ أهلا بفراج ! أين المفتاح يا فراج ؟

ـ ماذا تريد من المفتاح ؟ إنه فى هذه الكوة ، ولكن

علقمة أمرنى ألا أفتح لأحد .

ـ صحيح ، إن علقمة رجل أمين ذكى شديد الحذر ، وقد عرف كيف يختار رجلا مثلك أميناً ذكيًّا شديد الحذر ، غير أنه من المحقق أنه أمرك ألا تفتح لأحد يجئ من خارج المدينة ثم يطرق الباب طالباً الدخول إليها ، فإن فى ذلك خطراً عظيماً ، إنها تكون مصيبة داهمة حقًّا أن يدخل المدينة عدو . ولكنه لا يعقل أن يأمرك بألا تفتح الباب لأى رجل يريد الخروج من المدينة ، الخروج من المدينة يا فراج غير الدخول إليها ، أين تسكن يا فراج ؟

ـ أسكن فى حارة الحمّالين بجانب الجبل .

ـ هل بحجرتك فيران ؟

ـ كثير جدًّا .

ـ عظيم ، أإذا أراد فأر فى حجرتك أن يخرج منها إلى الحارة أكنت تأبى عليه أن يخرج ؟ فابتسم فراج ابتسامة جعلت فمه يتصل بأذنيه كأنه فهم معضلة من أعقد مسائل الفلسفة وقال :

ـ لا . يجب أن يخرج ، إن الخير فى أن يخرج .

ـ إنك رجل متوقّد القريحة . وإذا أراد فأر جديد أن يدخل حجرتك فهل تسهّل له سبيل الدخول ؟

ـ لا . أبداً .

ـ هكذا نحن يا فراج . نحن سنخرج ، وليس فى ذلك أى حرج ، ولا يمكن أن يكون علقمة نهاك عن أن تخرج أحداً .

— إن كلامك صحيح معقول ، ولكن يبقى أن علقمة أمرنى ألاّ أفتح الباب ، وهو لم يذكر دخولا ولا خروجاً ، ولكنك تجيء الآن فتربك عقلى بمسألة الدخول والخروج ، وأظن الأحوط لى أن أثبت على أمر صاحبى ، فاذهب عنى بالله عليك فقد أتعبت عقلى بالحجرة والفيران ، وبمشكلة الدخول والخروج ، إن أمى حينما أرسلتنى إلى الفسطاط لأشتغل بنقل الأحجار للدار التى يناها مولانا كافور ، أمرتنى أن أطيع علقمة وألا أخالف له أمراً ، فاذهب إلى شأنك يا رجل ، وبعد قليل يؤذن الفجر ، وينبسط النهار ، ويجئ علقمة ، وهو أعلم منى بمعنى الدخول والخروج .

فظهر الألم على وجه الخزاعى ، ورمى بنظرة نحو فراج ، ثم أرسلها نحو المتنبى ، وكان فى هذه النظرة كثير من العجب والدهش والحسرة ، وكأنها على سرعة وميضها كانت تقول : أحياة هذه العبقرية الضخمة ، وذلك النبوغ الخارق أصبحت معلقة بكلمة يقولها هذا الغرّ الأبله الذى لا يعقل ولا يبين ؟ أذلك العقل الهبرزى ، والذهن الوقّاد ، رمى به نحس الطالع إلى أن يستجدى بسمة رضاً من هذا الحيوان الجاهل المعتوه ؟ أليس من أضاحيك القدر ومبكياته ، أن يقف المتنبى ، وهو الفارس الكرّار ، والبطل المغوار ، الذى ملأ خياشيمه غبار الوقائع ، ذليلا مستعطفاً أمام ذلك الممرور الأحمق ، والرعديد المائق ؟ أليس من خرف الزمان ، وجنون الأيام ، أن يخضع

الشعر ، وتطأطئ الفلسفة ، وتتضاءل الحكمة ، ويذل المثل الشرود ، لهذا الغبي العيي المأفون ؟ أهذه تصاريف القدر التي يسمونها ؟ أهذه أحكام الفلك الدوّار التي يجب أن نقتنع بها راضين أم ساخطين ؟

وما كادت تعود إليه نظرته حتى همس المتنبي فى أذنه قائلا :

ــ دعنى أقتله يا ابن يوسف .

ــ اصبر قليلا فالأمر لا يستحق كل هذا ، وليس هو من نوع الشرف الرفيع الذى يجب أن يراق على جوانبه الدم .

وما كاد يتم قولته حتى سمعت خطوات أخذت تقترب قليلا قليلا ظهر من ورائها رجل شعشاع يحمل فى يده هرّاوة طويلة غليظة ، ويلبس ثياب العسس . فأخذت قلب الخزاعى رعدة ، وغاله ارتباك وذعر ، ولكنه جمع إليه نفسه وقال :

ــ وهذا أحد العسس يا فراج وهو يستطيع أن يفهم ما نقول . فاهتز العاسّ لهذا الثناء الضمنى على ذكائه وعبقريته ، وقال مبتسما .

ــ ما الأمر ؟

ــ الأمر فى غاية السهولة واليسر ، أنت تعرف يا . . يا . .

فأسرع العاس قائلا :

ــ شماخ الأحول .

ــ أنت تعرف يا شماخ أن مولانا كافوراً أمر بضرب دنانير جديدة ، وأمر أن يرسل قدر منها إلى عامله بالرملة ولا بد أنك

تعرفه يا شماخ . فا بتلع شماخ ريقه ، ورأى من واجب العظمة والذكاء وكرامة المنصب أن يكون يعرفه ، فقال :

ـ نعم . . . نعم . . . أعرفه .

ـ إنه الحسن بن طغج .

ـ نعم الحسن بن طغج بلا شك ، إنه الحسن بن طغج .

ـ وأنتّ تعرف يا شماخ أمر عصابات اللصوص الذين تمتلىء بهم هذه المدينة . فهزّ شماخ رأسه مزهوًّا حين رأى انسياق الحديث إلى شأن يستطيع الكلام فيه وقال :

ـ اللصوص يا سيدى ؟ إنهم كثيرون منتشرون فى أنحاء المدينة ، وكبيرهم مسافر بن طلحة ، وهم يا سيدى من قبائل القيسية ، يضربون خيامهم بأهناس ، وهى كورة إلى الجانب الآخر من النيل تقرب من الفسطاط ، ولا تخلو ليلة من سرقةأو نهب أو غارة . كنت أمرّ ليلة أمس بزقاق القناديل فرأيت باب إحدى الدور مفتوحاً ، فعجبت للأمر ، ودخلت الدار فلم أسمع بها حسًّا ، فلما اقتربت من دهليزها رأيت رجلا مكموماً مكتوفاً ملقىّ على الأرض ، فتأملته فإذا هو إسحاق الجوهرى اليهودى ، وهو رجل شحيح جديب الكف جمّاع منّاع ، لو عرف أن فوق مناط الثريا درهما لطار إليه، وهو يعيش وحده فى هذه الدار ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولا يؤنسه فى وحشته إلا أكداس من المال والجواهر ، فأسرعت بحل وثاقه وفك كمامته ، وعلمت بعد جهد أن اللصوص سطوا على داره وأخذوا كل ما

فيها من جواهر وتركوه جثة خامدة بين الموت والحياة . إن سرقة كهذه يا سيدى لا يجرؤ عليها إلاّ مسافر ورجاله . وخاف الخزاعى أن يسترسل هذا الثرثار فى الانطلاق وفى أقاصيص السرقات التى يكاد يخطئها العد ، فقال :

ــ أراد مولانا كافور أن يرسل أكياساً من الدنانير الجديدة إلى صاحب الرملة ، ووكل إلينا السفر بها فكتمنا الأمر خوفاً من اللصوص ، وعزمنا أن نسير خفية تحت جناح الليل حتّى لا يشعر بنا أحد منهم فيتعقبنا فى طريق الصحراء مع بعض رجاله ، ويغتصب منا ما نحمله .

ــ هذا رأى حازم يا سيدى ، ونعم والله ما فعلت . هؤلاء اللصوص يا سيدى . . وخاف الخزاعى أن يندفع الرجل إلى أحاديث اللصوص وأفاعيلهم ، فأسرع ومد يده إليه بدينار وقال :

ــ وهذا نوع الدنانير التى أخرجتها دار الضرب حديثاً . فوثب فراج وأخذ الدينار ونظر فيه ، وقال هازئاً :

ــ وهذا درهم أصفر ! فمد شماخ يده واختطف الدينار وحملق فيه بشره ونهم ، وقال :

ــ تبّاً لك من أبله مغرور. إن الدرهم لا يكون أصفر أيها الجاهل . إن الدرهم من فضة ، والفضة بيضاء ، أما الدينار فمن ذهب ، والذهب أصفر . أعرفت أيها الغبى ؟ إنه دينار كافورى جديد ، وهو يساوى فى قيمته خمسة دنانير .

وحينما لمح الخزاعى الجشع فى عينى شماخ لمح معه الفرصة المواتية ، فقال :

– إن هذا الدينار هبة خالصة لمن يسبق منكما إلى فتح الباب . وما كاد يفرغ من قوله حتى وثب شماخ إلى الكوّة ، وأسرع فالتقط المفتاح وأدخله بغلق الباب وأداره فانفتح ، ثم هزّ يده بالدينار وصاح : اخرجا أيها السيدان .

فأسرعا إلى الباب ، وصاح الخزاعى جذلان فرحاً : لقد استحققت الدينار يا شماخ ! هكذا الشهامة ! وهكذا البطولة !

وبقى فراج ينظر إليهما مذهولا دهشاً واجماً ، وهو لا يعرف ما جرى ، ويستنجد عقله ليعرف أول الأمر وآخره فلا ينجده ، ولم يبق فى ذهنه من كل هذه المسألة المعقّدة إلا أن الدرهم يجب أن يكون أبيض ، وأن الدينار يجب أن يكون أصفر .

وانطلق أبو الطيب والخزاعى كأنما أطلقا من عقال .

وجعل المتنبى ينظر من بعيد إلى فراج وشماخ وينشد :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وإنما نحن فى جيل سواسية ... شر على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق ... تخطى إذا جئت فى استفهامها بمن
لا أقترى بلدا إلا على غرر ... ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم أحدا ... إلا أحق بضرب الرأس من وثن

حيرة

أخذت تباشير الصباح تبدو فى الشرق كأنها نهر من نور تتهامس أمواجه ، ويتلألأ فوقها حبابه ، وآذن زنجى الليل بالرحيل فطفق يقتطف أزهار النجوم فلم يترك إلا واحدة بقيت فى الأفق لماعة وهاجة خفاقة ، كأنها ترتعد فرقاً من أن يغرقها سيل الصباح . وزجر الفارسان جواديهما فانطلقا مع الرياح كأنهما من الرياح ، وانجردا كأنهما القضاء المنقض ليس له مرد ولا عنه محيد . وصبا السوط عليهما ظالمين فانصبا كما ينصب السيل هداراً عجاجاً لا يقف فى طريقه شيء ، ورميا بطرفيهما إلى البعيد فأصبح قريباً ، وكأنما أعدى عدوهما الأشجار والنخيل فعدت معهما إلى حيث يقصدان . وعجبت الطيور فى السماء أن يكون منها طيور ذات قوائم ، وعبس وجه الأفق بعد أن كاد غبارهما يسد معاطس الأفق ، وشكت الأرض من ضرب سنابكهما المتلاحق وظنت أنها تلاقى جزاء زلتها فى أن ترضى بأن تكون أماً لهذا الإنسان الذى خلق من طين !

أشرقت الشمس على الفارسين كأنها قرص من الذهب النضار ، وبعثت إلى الكون نوراً وحياة كعادتها فى كل يوم ، وهى لا تعرف ماذا يفعل الناس بالنور والحياة ، ولا تعرف أن الحياة التى تمنحها فيها معنى الموت وفيها معنى الفناء ، ولكن

ما شأنها هي بمن يعيش أو بمن يموت ؟ إنها سراج إلهي يستضيء به من أراد أن يستضيء ، إنها تضيء للأعمى ، وتضيء للبصير ، وتشرق على البار والفاجر ، ولكنها على أي حال خير من السحب البله التي تترك الرياض الظمأى وتصب ماءها مدراراً على الأراضي السبخة التي لا تخرج زرعاً ولا تنبت بقلا ، وهي خير ألف مرة من الحديد الذي يخدم الإنسان ويقتله .

أشرقت الشمس على الفارسين فكفكفا من عناني فرسيهما بعد أن جاوزا الفسطاط بأميال ، وبدت الزروع والكروم والنخيل يداعبها النسيم فينفض عنها غشية النعاس ، واستيقظت القرى والدساكر ودب فيها ضجيج الحياة ، بين ترنيم الطيور ، وصياح الديكة ، وبين ثغاء وخوار ونباح . وكان كل شيء في الكون مشرقاً بساماً ، وكان كل شيء ضحوكاً مرحاً ، وكان كل شيء يسطع بفطرته النقية على ما حوله فيزيده تألقاً وابتهاجاً ، حب وسلام وجمال ، هكذا خلق الكون ليكون ، وهكذا يجب أن يكون ، ولكن الإنسان المشئوم الشقي بنفسه ومطامعه ، يقلب هذا الحب عداء وشكاسة ، وهذا السلام حرباً وصراعاً ، وهذا الجمال قبحاً ودمامة . كان كل شيء في الكون جميلامشرقاً إلا المتنبي ، فإنه كان واجماً عابساً منتفخاً بالشر مشحوناً بالبغضاء ، ناقماً من الكون ومن كل من في الكون ، يشكو ويهمهم :

أما فى هذه الدنيا كريم تزول به عن القلب الهموم ؟
أما فى هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقيم ؟
تشابهت البهائم واالعبـدّى علينا والموالى والصميم
وما أدرى أذا داء حديث أصاب الناس أم داء قديم ؟
كأن الأسود اللابىّ فيهم غراب حوله رخم وبوم
أخذت بمدحه فرأيت لهـواً مقالى للأحيمق يا حليم
ولما أن هجوت رأيت عيـاً مقالى لابن آوى يا لئيم
فهل من عاذر فى ذا وفى ذا فمدفوع إلى السقم السقيم ؟
إذا أتت الإساءة من وضيع ولم ألم المسىء فمن ألوم ؟

فالتفت إليه الخزاعى فى ألم وحسرة قائلا : هوّن عليك أبا الطيب ، فإن نجاتك من الأسود حياة جديدة ، ولا يزال فى العمر مقتبل ، ولا يزال لآمالك مسبح فى هذا الكون المضطرب بالآمال ، وإن مثلك من اتخذ من الإخفاق سلما ، ومن الهبوط ذريعة إلى الصعود . والتجربة عقل ثان ، وإن لك من شعرك ورصين خلقك وبعيد طموحك ما يغزو لك الدنيا ويذل الأمراء . انظر أبا الطيب ، إنك لم تفقد شيئاً بل لقد ربحت كثيراً ، نزلت على كافور فتغفلته واستوليت على كثير من ماله ، ثم فررت منه كما يفر الماء من خلال الأصابع ، ثم أرسلت هجاءه فى الآفاق تتناوح به الرياح ، وتسير به الركبان ، ويتغنّى به الصبيان ، ويتنادر به السمّار ، وسيبقى على الزمن أضحوكة الزمن ، وأقسم غير حانث إن هجاءك لأشد على

الأسود من وقع السهام فى غبش الظلام ، وإنه ليود بجدع الأنف لو تخلى عن بعض ملكه ولم يفوّق إليه شعرك المسموم قافيه . لم تندب يا أبا الطيب ؟ لقد ألقيت على أمراء هذا الزمان بهجائك كافوراً درساً لن ينسوه ، فإذا خسرت اليوم أميراً فلقد كسبت أمراء ، إنهم يعطون إذا رغبوا ، ولكنهم إذا رهبوا أعطوا أكثر وأكثر ، وهم يحبون المديح ويثيبون عليه ، ولكنهم يبغضون الهجاء ويثيبون على دفعه عنهم أضعافاً وأضعافاً ، وقد عرف ذلك قبلك اللئيم بشّار فكان يقول : إن الهجاء أجلب للمال وأرفع لقدر الشاعر من المديح . اذهب الآن أبا الطيب حيث شئت تجذ كل أمير يسارع إلى لقائك ، ويحتفل بمقدمك ، ويقبّل الأرض بين يديك ، ويفتح لك خزائن ملكه . وأكبر الظن أن سيف الدولة ينتفض منك الآن فرقاً ، ومعز الدولة ببغداد يتحرّق لقدومك عليه شوقاً ، وعضد الدولة بفارس يود لو يحملك إليه السحاب. أفق أبا الطيب ، ما هذا الحزن؟ وما هذا الوجوم؟ إن من يراك يظن أنك فقدت عرشاً أو سُلبت سلطاناً ، إنك تملك الكون كلّه بشعرك ، إن الأرض كلها لك مغدًى ومراح ، وإن من كانت له عبقريتك وعزيمتك يجب أن يسمو فوق الأشخاص ويرتفع فوق الشهوات ، ويطلّ على الناس من سماء مجده كوكباً منيراً

ـــ هذا كلام أشبه بالشعر يا ابن يوسف لا يثبت على النظر ، ولا يقوى على البحث ، فلقد فقدت بقدومى على العبد كل شىء : فقدت شبابى ، وفقدت آمالى ، وفقدت كرامتى ، ودنّست اسمى

بين الشعراء . إننى نشأت فى أول أمرى شاعراً أقرض الشعر فيمن يستحق ومن لا يستحق . وكانت جوائزى لاتتجاوز بضعة دراهم فلما منحت مرّة ديناراً على قصيدة من خير ما تنفّس به الشعر العربى ، توهّمت أنى لمست السماء ، وقطفت عنقود الجوزاء . وكم لاقيت عسراً ، وكم لاقيت عنتاً ، وكم قاسيت مسغبة وفقراً ، وكم أطرقت للذل ، وشربت المر ، وبليت بقوم هم شر على الحر من سقم على بدن ، ولكنى كنت أزجر النفس إذا سئمت ، وأروضها إذا نفرت ، وأتواضع لجبروت من أمدحهم ، وأصدّق أكاذيبهم ، وأضحك لنوادرهم الغثّة الباردة ، وحينما بلغت بدر بن عمار توهمت أنى بلغت القمة ، واقتعدت سنام الشرف.

— بدر بن عمار الذى تقول فيه ؟

لو كان علمك بالإله مقسما   فى الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما أنزل الـ   ـفرقان والتوراة والإنجيلا
لو كان ما تعطيهم من قبل أن   تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

لقد أغرقت أبا الطيب وجاوزت النطاق ، وهذا شأنك دائماً إذا رضيت .

— وأغرق أيضاً وأجاوز النطاق إذا سخطت . ظننت أنى بلغت القمة عند بدر بن عمار هذا ، وكان فتى عربيداً سكيراً ماجناً ، ولكنه كان جواداً متلافاً ، فرضيت بحظى منه ، وقنعت بجنته المحفوفة بالمكاره ، ولكن حسّادى تيقظوا حين نمت ، وثاروا حين سكنت ، وأفسدوا بينى وبين الأمير ، فلم أجد

وسيلة إلا أن أفرّ منه وأن أتخذ الليل مركباً ، وأترك عنده آمالا لم تتفتح أزهارها ، ولم تزغب أطيارها ، وكانت هذه الخيبة الأولى ، أما الخيبة الثانية ، وهى التى لا أزال أقرع عليها السن ، وأعض الأنامل ، فهى خصومتى لسيف الدولة وإدلالى عليه أشراً و بطرا ، وجفوتى لما كنت فيه من النعيم جنوناً وخرقاً ، ومعاداتى لأهله وحاشيته تجبراً وكبراً ، حتى ضاق بى وحق له أن يضيق ، وتبرم بمقامى وأجدر به أن يتبرم ، فنبت بى حلب وخرجت منها ليلا كما يخرج اللص المطارد . ولطالما نصح لى راويتى أبو الحسن بن سعيد بألا أترك سيف الدولة أو أبغى به بديلا من ملوك الأرض ، وكأنى أسمع الآن نبرات صوته فى أذنى وهو يقول : « إنك الشاعر الذى بعث على رأس هذا القرن لينهض بالعرب ، وليغنى بمآثر العرب ، وليعيد مجد دولة العرب ، ولن أجد لك ميداناً بين دويلات الإسلام أوسع من حلب ، ولا ملكاً يساير رنين شعرك صليل سيوفه إلا سيف الدولة ، إنه الملك الفذ الذى يقارع الروم ، والحرب يا أبا الطيب لن تسير غازية فاتحة مظفرّة إلا عن ألحان من الشعر الحماسى ، الذى يلهب الوجدان ، ويقذف الرعب من قلب الجبان » . هكذا كان يقول ابن سعيد فما سمعت له ولا اكترثت بقوله .

— حقًّا لقد بلغت ذروة مجدك الشعرى عند سيف الدولة، وكنت والله جديراً بأن تقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى   إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مغرِّدا

وحقيقاً بأن تقول :

وعندى لك الشّرد السائرا ت لا يختصصن من الأرض دارا
قواف إذا سرن من مقولى وثبن الجبال وخضن البحارا

ولقد صدق ابن سعيد فإن شعرك كان جنداً لسيف الدولة أقوى من جنده ، وسلاحاً أمضى من سلاحه ، فمن غيرك كان يستطيع أن يصف الجيش وصاحبه كما قلت ؟

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفى أذن الجوزاء منه زمازم
تجمّع فيه كل لسن وأمة
فما يفهم الحدّاث إلا التّراجم
وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضّاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنُّهى
إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة
تموت الخوافى تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب
وصار إلى اللّبات والنصر قادم

هذا أفق لم يحلّق فيه شاعر ، وأوج لم يصدح بجوّه طائر .

— لا تثر أشجانى بالله عليك يا ابن يوسف ، ودع جرح قلبي يندمل . فإن الذكرى تزيده ألماً ونغلا . أين أنا من سيف الدولة الآن ومن أيامه النضرات ، ولياليه المشرقات ؟ تركت هذا الملك الحر الكريم المجاهد يا ابن يوسف ثم قصدت من ؟ قصدت كافوراً الزنجى الخبيث النتن الكذّاب الماكر المحتال ، فجزانى الله على كفرى بالنعمة ، وألقى بى فى عذاب الجحيم بعد أن بطرت على الجنة ، ولقد كان أبو الحسن بن سعيد صادقاً أيضاً حين كان يجذبنى من كمى ويقول : « احذر يا أبا الطيب . فإنه قد يجول بخاطرك أن تذهب إلى مصر ، وإنى أربأ بك أن تفعل هذا ، وأن تجعل من نفسك عبداً للعبد الأسود ، ويالضيعة الشعر . ويالضيعة الأدب . إذا انحدرا إلى هذه الهاوية . » ولكنى لم أطعه ، وساقنى الغرور إلى مصر ، وعقدت الآمال بالكذاب الفاجر ، وها أنذا أفرّ اليوم منه كما يفر الطائر من الفخ مهيض الجناح ممزّق الأوصال . كأن حياتي أصبحت كلها فراراً ، وكأنه كتب على ألا ألقى ملكاً إلا فارّاً من ملك ، وألا أودّع ممدوحاً إلا بمثل ما قلت فى كافور .

— تقصد « الدالية » ؟ إنها قصيدة خالدة على الدهر ، ولكن دعك من كافور الآن ، ووجه همك إلى ما سيكون من أمرك ، وما ستتفتح به لك الأيام .

— لن أترك كافوراً ، ولن أكفكف عنه سهام شعرى ،

وستشرق عليه شمس كل صباح بصاعقة جديدة تهز أعواد عرشه . ولعلك لا تصدق يا ابن يوسف أنى كنت أقول فيه شعراً حينما كنت تحاور فراجاً حارس الباب .

ــ عجيب أمرك يا أبا الطيب ، وويل لمن يبتلى بلسانك المرّ.

ــ كنت أقول :

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا
وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أميناً وإخلافــاً وغــدراً وخسة
وجبناً ، أشخصاً لحت لى أم مخازيا؟
تظن ابتساماتى رجــاء وغبطـــة
وما أنا إلا ضاحك من رجائيا
وتعجبنى رجلاك فى النعل ، إننى
رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيـــا
ولولا فضول الناس جئتك مادحا
بما كنت فى سرى به لك هاجيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيـــدة
ليضحك ربّات الخدور البواكيا

ــ هذه صفعات بالنعال لمحض المداعبة .

ــ وستلها صفعات وصفعات إن كان فى الحياة متسع ، لقد أهدر هذا الأسود مجدى الشعرى كما قلت لك آنفاً ، وسوف أضطرّ إلى أن أبدأ بصعود السلم من جديد ، فقد كان ملوك

العرب يحيطوننى بهالة من الهيبة والإجلال ، ويظنون أنى أحمى أنفا ، وأعظم منزلة ، وأسمى كرامة ، من أن أتدلى إلى مدح العبد ، وأن أشد رحالى إليه ، وأن أتسلب من المروءة والرجولة فأبيع شعرى بالمال لحبشى دعىّ فى نسبه دعى فى ملكه ، وأن أترك صناديد العرب وأبطالهم يجاهدون فلا يصف وقائعهم واصف ، ويبذلون فلا يسجل محامدهم شاعر . فكيف أذهب إليهم الآن يا ابن يوسف ؟ إننى إن ذهبت فسوف توصد فى وجهى أبوابهم ، وأذاد مذءوماً عن حضرتهم ، وسيقولون متهانفين ساخرين : شاعر أفّاق مهين ، لا نفس له ولا كرامة ، لو وجد فى عنق كلب طوقاً لمدحه ، ولو رأى فى جيب بغىّ درهماً لخلع عليها كل صفات الطهر والعفاف . وماذا نبغى من مديح رجل كان يقول للعبد بمصر ؟

ويغنيك عما ينسب الناس أنه إليك تناهى المكرمات وتنسب
وأى قبيل يستحقك قدره معد بن عدنان فداك ويعرب

ويقول فيه :

عند الهمام أبى المسك الذى غرقت
فى جـوده مضر الحمراء واليمن

إننا نريد شاعراً يصدقه الناس ويوقنون أنه لا يقول للمال ولكن للزعامة القومية ، والحمية العربية ، والغيرة على الإسلام . هكذا سيقول ملوك العرب يا ابن يوسف ولهم الحق فيما يقولون ، وليس الأمر كما تظن من أن هجائى كافوراً سيخيفهم بل إنه

سيجرئهم عليّ ويزهدهم فيّ وفي شعري ، لأنني أصبحت شاعراً ليس لقوله وزن ، ولا لحكمه تقدير ، شاعراً لا يمدح للحق ولا يهجو للحق ، وإنما يمدح ليسخر من ممدوحيه ، ويهجو لأنه يئس منهم ، أو لأنه امتص كل ما لديهم وراح يبحث في الأفق عن صيد جديد أسمن منهم وأدسم . خبّرني بالله يا ابن يوسف ، بأى وجه ألقى الآن سيف الدولة بن حمدان ، بعد أن خاصمته وناوأته ونافرته ؟ إنني رجل أحمق يا ابن يوسف ، إذا تملكتني حمى الغضب قذفت الكلام يميناً وشمالا ، وبدرت مني بوادر يحتبسها الحازم الحذر فلا يتحرك بها فوه ، إنهم يسمونني الشاعر الحكيم ، ولكن يظهر أنني أنثر حكمتي على الناس وأنسى نفسي ، وأنني كبائع الجوهر يحلّي صدور الحسان وهو متسلب عاطل ، وإلا فما الذى كان دعاني بعد أن بعدت عن سيف الدولة وانقطع ما بيني وبينه ، أن أعرّض به عند مديحي للأسود فأقول :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلّت بياضًا خلفها ومآقيا

— هذا صحيح ، فقد جعلت كافوراً بحراً ، وجعلت سيف الدولة ساقية ، وجعلت الزنجي إنسان عين الزمان ، وجعلت سيف الدولة بياض العين الذى لا غناء له ولا خطر .

— ثم ما هذا العرق اللئيم الذى دفعني عند مدح كافور إلى أن أقول ؟

قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ولا يمنّ على آثار موهوب

ـ أتظن أن سيف الدولة يدرك هذا التعريض البعيد ؟
ـ إن ذهنه فى فهم مرامى الشعر ومواقعه أرهف من سيفه .
على أن طيشى وهذرى لم يحوجاه إلى كد الفهم وإعمال النظر ، فقد أرسلت هجاءه وهجاء قومه صريحاً فى « نونيتى » الملعونة التى أقول فيها :

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللبن
جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن
وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن

أبعد هذا أستطيع أن أمد يداً إلى سيف الدولة أو أن أنزل له بجوار ؟
ـ أنا كفيل بأنّ أكبر أمنية لسيف الدولة أن يراك فى قصره ، وأن يعيد بشعرك عظمة ملكه وصولة سلطانه .
ـ هذا كلام يا ابن يوسف ، وهبنى أطعتك وذهبت صاغراً إلى سيف الدولة ، فكيف أصل إليه إذا لم أمرّ ببلاد كافور ، وأظنه اليوم قد ملأ كل الطرق عيوناً علىّ وأرصاداً ؟
ـ فأين تذهب إذا لم تذهب إلى سيف الدولة ؟
ـ والله لا أدرى أين أذهب .
ـ هل خطرت ببالك بغداد ؟
ـ بغداد؟ ألا تزال تظنها دار الخلافة ، وموئل العربية

بعد أن استولى عليها الديلم ، واستبدّ بها معز الدولة ؟ إنها لا تجمع اليوم إلا شذّاذ الشعراء ، وحثالة المسترزقين بالأدب ، الذين يغدق عليهم الوزير المهلبي الماجن ، ويرسلهم على أعدائه ومنافسيه كما ترسل الكلاب المضرّاة خلف صيد نافر . على أن حمقي الذي سد على طريق العودة إلى سيف الدولة قد أوصد الباب بيني وبين بغداد ، لأنني اندفعت حينما كنت بحضرة سيف الدولة إلى أبيات كلها تعريض بصاحب الأمر ببغداد ، فقد قلت أخاطب سيف الدولة :

فدتك ملوك لم تسمّ مواضيا ... فإنك ماضي الشفرتين صقيل
إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ... ففي الناس بوقات لها وطبول

– ليس في هذا تعريض بمعز الدولة بتاتاً ، وقد عهد الناس في الشعراء وألفوا منهم أنهم إذا مدحوا ملكاً فضّلوه على غيره من الملوك ، والناس يعرفون هذا ، ويعدونه من خصائص الشعر ومنادحه ، ويعتقدون أن الشاعر لا يقصد مما يقول إلا المبالغة والإغراق .

– أتظن هذا ؟

– هذا ما يخطر ببالي كلّما قرأت أبياتاً من هذا القبيل .

– وما قولك في هذين البيتين إذاً وقد قلتهما في سياق مدح سيف الدولة ؟

فواعجبا من دائل أنت سيفه ... أما يتوقى شفرتَي ما تقلدا ؟
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا

ــ لا يا أبا الطيب ، هذا تحد صريح ، وتشهير بعجز الدولة ، وتصوير مخز لضعفه ، كيف ساغ لك أن تقول مثل هذا ؟ ومالك وللديلم ؟

ــ لا أدرى ، وإنما هو لسانى الذى يسوقنى إلى المهالك ، أرأيت الآن أنى لا أستطيع الرحيل إلى بغداد ؟ وماذا بقى من أقطار العرب بعد مصر والشام والعراق ، وقد تركت فى كل منها جريمة شعرية تذودنى عنها ؟

ــ بقى الفاطميون بالمغرب .

ــ للفاطميين عقيدة لا أسيغها ، ولهم فلسفة لا أفهمها ، على أنى لا أستطيع الوصول إليهم إلا إذا اخترقت بلاد كافور ، فأسقط هؤلاء من الحساب أيضاً .

ــ لم تبق إلا فارس ولكنى لا أشير بها عليك .

ــ وأنا لا أشير بها على نفسى ، وإذاً لم يبق أمامى بعد أن يئست من الملوك ، وبعد أن سدوا أبوابهم دونى ، إلا أمران لا ثالث لهما : إما أن أنزل من القمة التى صعدت إليها بعد جهد وكد ، وأعود إلى ما كنت عليه فى بداية أمرى ، فأستجدى بشعرى صغار الناس وطغامهم ، أمثال محمد بن زريق الذى وصلنى على قصيدة بعشرة دراهم ، فلما عاتبه صديق فى قلة الجائزة مع حسن الشعر وجودته ، قال له : « والله ما أدرى أكان شعره حسناً أم قبيحاً ؟ ولكنى أزيده لأجل خاطرك عشرة دراهم أخرى » . وإما أن أعود إلى الكوفة فأقبع فى دارى ، وأهجر

الناس جملة ، وأقيم بيني وبين الملوك وأشباه الملوك سداً ، فقد كفاني ما لقيت منهم ، وكفاهم ما لقوا مني ، ولي الآن ثروة تكفل الراحة والنعيم وهناءة العيش .

ــ مثلك لا يعمل الأولى ولا يستطيع الثانية ، فلن تمد يدك إلى صغار الناس مستجدياً ، ولن تقبع في دارك خاملا متزهداً ، إنك الحركة الدائبة يا أبا الطيب ، والطموح الوثاب ، والهمة الغلابة ، والعزم الفصال ، إن مثلك لا يقبع في داره إلا إذا قبع الفلك الدوار ، ووقف الليل وتعب النهار ، وسلبت الأسود غرائزها ، والسيوف مقاطعها ، والسيول تهدارها ، والجبال ركانتها وشموخها ، وكيف تهدأ وفي نفسك نار لا تهدأ إلا بالتجوال ، وفي صدرك أتون يغلي بمضطرب الآمال ؟ وإنك لصادق حقاً حينما تقول :

وفي الناس من يرضى بميسور عيشه
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ماله مدى ينتهي بي في مراد أحده
يرى جسمه يكسى شفوفاً تربه فيختار أن يكسى دروعاً تهده

وحينما تقول :

فما لي وللدنيا طلابي نجومها ومسعاي منها في شدوق الأراقم؟
من الحلم أن تستعمل الجهل دونه
إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذي شطره دم فتسقى إذا لم يسق من لم يزاحم

وحينما تقول :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

مثلك يا أبا الطيب لا يهدأ فى داره كما تهدأ العجائز يغزلن بأيديهن وينلن بألسنتهن كل عدو وصديق ، لا يا أبا الطيب ، إنك لو أردت الاستقرار لغلبتك نفسك على الجلبة والصخب والاضطراب والضرب فى كل مكان ، إن لسانك لسان شاعر ، وقلبك قلب ملك ، وعقلك عقل حكيم ، وعزمك عزم جبّار . وهذه إذا اجتمعت ضاقت بها الدنيا وغصّت بها الآفاق ، فكيف تجمعها دار ؟ وكيف تحبسها حيطان ؟

ـ هذا هو الذى يؤلمنى يا ابن يوسف ، وهذا هو الذى يحز فى نفسى ؛ لقد رحلت إلى مصر طامعاً فى أن أنال من الأسود ولاية ألقى عندها رحال آمالى ، وأسكت بها صيحات مطامعى ، وأتعلل بها عن مطالبى الضخام ، ومقاصدى الجسام ، فضاع أملى فى العبد وخاب ظنى فيه . ولقد كنت على اعتزام الرحيل عنه بعد إقامتى سنتين فى كنفه تحقق لى فيهما كذبه ومينه وخداعه ، وأنه عبقرى فى بذل الوعود ، نابغة النوابغ فى إخلافها . كنت على أهبة الخروج من مصر حينذاك ؛ وكان الخروج منها سهلا فلم يكن كافور قد تشكك فى أمرى ، ولم يكن الأبله يعتقد أنى عرفت طوايا نفسه ، وأدركت خبثه ومحاله . ولم يعقنى عن الرحيل فى ذلك الحين إلا أمران : أولهما عائشة بنت

رشدين ، فلقد كانت ملكاً كريماً فوق هذه الأرض يا ابن يوسف ، إنها الطهر المصفّى والعفاف النقى ، والأدب الساحر والذكاء النادر ، والحنان الذى ينضح الهموم ويبدّد الآلام .

ــ والجمال الذى لم تر الشمس له مثيلا منذ طلعت الشمس

ــ والجمال الفاتن يا ابن يوسف ، جمال الروح وجمال الجسم وجمال الخلق وجمال الابتسامة المشرقة وجمال الحديث الذى يختلب العقول . إننى رجل جاف خشن الطبع شائك الملمس يا ابن يوسف ، لم تترك آمالى الضخام فى قلبى مكاناً لحب ولا موضعاً لصبابة ، ولم تهف نفسى إلى عبث الشباب ومجون الشباب ، ولقد استقر فى نفسى أنى سهم صوّبه الله إلى غرض هو المجد فيجب ألا يحيد عن المجد ، وصارم بتّار لم يعرف فى يوم من الأيام إلا أن يسل من غمده ثم يعود إلى غمده . ما استهوانى يوماً جمال ولا اجتذبنى دلال ، ولا فهمت معنى للحب إلا فيما يقول الشعراء ، وأنت أعلم بأكاذيب الشعراء ، ولكنى أحسست نحو عائشة بميل عنيف كفكفت من غربه ، وسخرت منه أول الأمر ، ولكنه عاودنى أعنف مما كان وأشد حينما التقى بميلها ، واتصل حبله بحبلها ، ولقد كان حبّنا عذرياً طاهراً منزهاً عن دنس الدنيا ، بريئاً من وصمة الشهوات سامياً فوق الحياة ومآرب الحياة ، لقد كان حباً يشبه حب الملائكة الأطهار إن كان الملائكة يحبون . فعائشة هى التى حببت إلىّ البقاء بمصر ، وهى التى أماطت عنى اليأس وذادت عنى هواجس الهموم ،

وهى التى كانت تضمد تلك الجراح المسمومة التى تركتها فى سهام الأسود بلطف حديثها ، وفيض حنانها ، وسحر بشاشتها .

ــ إن عائشة بهجة مصر وزينة أترابها ، وهى أديبة كاتبة شاعرة ، وهى فوق ما وصفت جمالا وعفافاً وطهراً ، ومثلها جدير بحب رجل مثلك يا أبا الطيب ، وما الأمر الثانى الذى حملك على إطالة المقام بالفسطاط ؟

ــ حملنى على البقاء بالفسطاط تلك الصلة الوثيقة التى عقدتها مع أبى شجاع فاتك ، ولعلى اليوم فى حل من أن أذيع سراً لأصدق أصدقائى ، فقد انتهى الأمر ، ومات فاتك وماتت معه آمالى ودفنت مطامحى .

ــ دفنت مطامحك ؟ ماذا تريد بهذا ؟

ــ انتظر يا ابن يوسف ، لم تكن الصلة بينى وبين فاتك صلة شاعر بقائد ، ولكنها كانت أسمى من ذلك وأعظم شأناً ، كان فاتك يبغض كافوراً وكان كافور يبغضه ويخشى بطشه ويخاف منه على ملكه ، فأراد فاتك أن يبتعد عن الأسود فأقام بالفيوم ، وقد اتصلت به فى الصحراء بالقرب من « كوم أوشيم » مرات ، وكثيراً ما دار الحديث حول كافور وظلمه واغتصابه الملك ، وعرف منى فاتك بغضى للأسود وما يضطرب فى نفسى من آمال ، ولمح شدة عجبى من أن يحكم مصر عبد حبشى والدنيا تزخر بسادات العرب وصناديدهم ، وكان رجلا شهماً ذكياً محباً للعرب مفتوناً بعظمة تاريخهم وجلال ماضيهم ،

فقال: اسمع يا أبا الطيب فإن لى رأياً يسهل تنفيذه إذا حاطته الحكمة وصانه الكتمان. قلت: هات أيها القائد ، فقال : إننى عبد رومى ربانى الإخشيد ، وليس لى فى الملك مطمع ولا فى عظمة السلطان أرب ، ولكنى أبغض الأسود كما تبغضه ، وأرى أنه مغتصب ملكاً لا يسمو لمثله مثله ، وأن غيره أولى به وأحفظ له وأقوى عليه . وابن سيدنا « على » الذى أمات كافور نفسه ، وخنق فيه كل همة ، وأطفأ وميض كل فضيلة ، أصبح أضعف من ذات خمار ، وأوهى من القصبة المرضوضة ، لا يصلح أن يكون ملكاً ، ولا يصلح أن يكون رجلا . ورأيى حينما تسنح الفرصة أن أجمع قبائل العرب الضاربة بالفيوم ، وأن أكوّن منها جيشاً لهاماً نزحف به على الفسطاط ، ونقبض على كافور ونريح الدنيا من اسمه ، ثم تكون ولاية مصر شركة بيننا على السواء . ما رأيك يا أبا الطيب ؟ فدهشت وبهت وكادت تدركنى غشية ، لقد كانت مفاجأة عجيبة يا ابن يوسف . أكون ملكاً لمصر ؟ أنا الذى كان يطمع فى ولاية صغيرة من العبد ؟ أكون ملكاً لمصر ، و أدبرّ الأمر من مصر إلى عدن إلى العراق فأرض الروم فالنوب؟

هذا أشبه بالأحلام ، وأدخل فى باب الأوهام . إن مطامحى لم تصل بى إلى هذا ، ولكن ماذا أعمل والخطة واضحة ، والغاية محققة ؟ فبلعت ريقى ثم قلت : ولكن لكافور أيها القائد جيشاً بالفسطاط شديد المراس يدبره قواد عركتهم المواقع وعجمت عودهم الحروب . فأسرع وقال : إننى سأحتال على الرحيل عن

الفيوم بعد أن أكون قد اتفقت مع مشايخ قبائلها ، وسوف أقيم بالفسطاط حينا أستطيع فيه إغراء قواد كافور وجنوده ، وأكثرهم ساخط عليه متبرم بحكمه . وتم الاتفاق والتعاهد على كل هذا يا ابن يوسف ، وبقيت بمصر أنتظر الواقعة التى ليس لوقعتها كاذبة ، وقدم فاتك إلى الفسطاط وأخبرنى أن المؤامرة تمت على خير الوجوه وأدقها إحكاماً ، وأنه لم يبق إلا أن يشعل النار فى الحطب ، ولكن الموت عاجله قبل أن يمد يده إلى الزناد ، فخابت آمالى وتمزقت مطامعى وطارت مع الرياح أحلامى . أرأيت يا ابن يوسف كيف كان حزنى على فاتك شديداً ؟ أرأيت كيف ضاقت بى الحياة بعده ؟ أرأيت كيف اجتويت مصر وأهلها وخرجت منها محطم النفس مهيض الجناح ؟

— لم أعرف كل هذا ، ولكن يظهر أن كافوراً كان عنده كثير منه .

— نعم فإن جواسيسه يكادون يقرءون ما فى الصدور .

— إذاً كنت تطمع فى الملك يا أبا محسد ! ولكنى لم أر فى التاريخ شاعراً أحسن القيــام على الملك ، وأول هؤلاء امرؤ القيس ذلك الملك الضليل ، ثم الوليد بن يزيد الخليفة الأموى ، ثم عبد الله بن المعتز العباسى .

— هؤلاء كانوا شعراء ولم تكن لهم نفوس الملوك وعزائمهم .

وما كاد المتنبى يتم قولته حتى شاهد هو وصاحبه غباراً خلفهما ، وسمعا وقع سنابك خيل تعدو نحوهما عدواً ، فذهل

المتنبي وصاح أدركنا الأسود ! أدركنا كافور ! يا لخيبة الرجاء ويا لضيعة الأمل ! إن هؤلاء بعض جنوده يا ابن يوسف . كنا ظننا أننا نجونا من أظفار الأسد فإذا هو يرسل علينا ذئابه ! سأثب عليهم وأروّى منهم صارمى . فصاح به الخزاعى :

ـ اهدأ أبا الطيب ولا تسرع إلى الاحتكام إلى السيف .

ومضى وقت قصير فقرب منهما ثلاثة فرسان قد أجهدوا خيلهم شدًّا وعنقاً ، وصاح بهما كبيرهم فوقفا ثم قال فى صوت الآمر الظافر :

ـ ارجعا إلى الفسطاط. فأجابه الخزاعى فى رزانة واستخفاف متكلف :

ـ بأمر من نرجع إلى الفسطاط ؟ بامرك أنت ؟

ـ بأمر الوالى .

ـ وماذا يريد منا الوالى ؟

ـ يريد المال الذى سرقتماه أول من أمس من دار إسحاق الجوهرى ، فقد ثبت لنا أن مسافر بن طلحة هو الذى أغار على دار اليهودى واستولى على جميع جواهره وبعث بها مع فارسين ليبيعاها بالشام . وقد جعل اليهودى ثلث الجواهر أجراً لمن يردها إليه . فقهقه الخزاعى حتى كادت تسقط عمامته ، وقال :

ـ لله دركم أيها الحراس ! ما أشد ذكاءكم ! وما أبصركم باقتناص اللصوص ! هل ترون فى وجوهنا وفى ثيابنا وفى مراكبنا ما يوحى بأننا من اللصوص ؟ إنكم أيها السادة الكرام تضيعون

وقتكم معنا ، فإذا كانت لكم رغبة حافزة للقبض على لصوصكم فابحثوا عنهم فى مكان آخر .

ــ أنتم طلبة الوالى . فصاح المتنبى :

ــ إن الوالى أيها الأبلة لا يطلب فارسين وكفى ، وإنما يطلب لصين . ثم كشف عباءته فظهر تحتها منطقة من النضار المرصع بالجواهر ، وبدا سيفه وقد كان مقبضه ونعله من خالص الذهب ، وقال :

ــ أهذه ثياب لص؟ أهذه عدة لص؟ فهمس أحد الثلاثة فى أذن كبيرهم قائلا :

ــ ارجع أبا على ولا تكثر مع السيدين ، فإنى أخشى أن يكونا من كبار رجال الدولة . فتراجع أبو على وقال :

ــ أرجو أن يعذرنى السيدان إذا كنت خشن القول عنيفاً فى البحث ، فأنتما تعرفان ما وصلت إليه حال الفسطاط من جرأة اللصوص واستهانتهم بالحكام .

فقال الخزاعى :

ــ لا تثريب عليك يا رجل ، وإنما الذى أغضبنا أننا كنا نظن أننا أكرم عند الناس وعند أنفسنا من أن يخلطنا مثلك بطائفة اللصوص .

ــ أسألك العفو يا سيدى ، وأغلب ظنى أن يكون اللصوص قد سلكوا طريقاً أخرى . ثم أمر صاحبيه أن يلويا عنانى جواديهما ، وعاد ثلاثتهم أدراجهم يملئون جنبات الأفق عثيراً

وقتاماً . وتنفّس الخزاعى الصعداء ، وابتسم المتنبى ابتسامة ساخرة ، وكانا قد قاربا بلبيس فزجرا جواديهما حتى بلغاها بعد ساعة أو بعض ساعة ، ورأيا أبناء الخزاعى ورجاله ومحسداً وعبيده ينتظرونهم عند ظاهر المدينة ، فحيا المتنبى ابنه وخادمه مسعوداً بنظرة عابرة ، ثم شكر الخزاعى على حسن بلائه وعظيم ما أسدى فى خدمته من عناء ومخاطرة ، فسأله الخزاعى عن الطريق التى سيسلكها فقال :

ـ سأخترق الصحراء ، وسأسلك المفاوز المجاهيل التى لا يصل إليها جواسيس العبد ، وسأرد المناهل الأواجن ، وأنزل المنازل التى لا يطرقها إلا أهلها .

ـ إلى بغداد ؟

ـ إلى الكوفة ، إلى منبت عظامى ومسرح صباى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم .

ـ ومنها نخرجكم تارة أخرى !

ـ ما أظن يا ابن يوسف . ثم التفت فإذا غلام فاره ناضر العود جميل الزى وسيم الطلعة مشرق الجبين ، يتقدم نحوه ويمد يداً لتحيته ، فحقق فيه النظر ثم صاح :

ـ سيدتى عائشة ! ماذا جاء بك يا مولاتى ؟ وما الذى حملك على اقتحام المخاطر واتخاذ هذا الزى الغريب ؟

ـ حملنى على كل ذلك أن أراك وأن أودعك يا أباالطيب ، ثم تناثرت الدموع من عينيها كما يتناثر اللؤلؤ من عقد انفصم

سمطه ، ومضت تقول : إذا جفتك مصر يا أبا الطيب وضاقت بك رحابها ، فإن فتاة مصرية معجبة بك مفتونة بفنك تكن لك وداً أصفى من سماء مصر ، وتفتح لك قلباً أوسع من فسيحات رحابها. إنها تمنحك حباً لو كان فى عاصفة لعادت نسيما ، ولو مازج الملح الأجاج لصار تسنيما ، ولو لمس الهجير لحسده الأصيل ، أو خالط الليل ما شكا طوله محب أو عليل . دعنى أحمل أوزار قومى يا أبا الطيب ، وأبدلك بعقوقهم إخلاصاً ، وبغدرهم وفاء ، وبإهمالهم إجلالا وتقديراً. لقد كان حبنا قدسياً طاهراً كأنه حب الغمام ، وكانت نفوسنا صافية كصفاء الملائكة ، وكان ودنا روحانياً نقياً كنقاء لآلىء الفردوس. والآن يا أبا الطيب آن أن نفترق ، وقد يطوينا الموت قبل أن نلتقى ، ولكنى سأراك فى كل لحظة وسأستمع لك فى شعرك كلما رددت قصائدك الخوالد ، وأبياتك الأوابد ، وسأناديك فى اليقظة والمنام ، وسأهتف باسمك كلما عصفت بى الآلام . فزفر المتنبى وربت يدها فى حنان ورفق وقال :

— إن هذه الحياة يا عائشة أضيق من أن تتسع لمثل حبنا الذى لا تحده نهاية ، فإذا ضاقت بنا الأولى فإن لنا فى الأخرى خلوداً ونعيما وظلاً ظليلا وعيشاً لا يكدره علينا مكدر .

وما كاد يستمر فى الحديث حتى صاح مسعود : الرحيل يا سيدى الرحيل .

— هل أعددتم الزاد والماء ؟

— نعم يا سيدى . فحيا المتنبى الخزاعى ، ثم حيا عائشة

حزيناً كاسف البال ، وهو يقول :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى ... وللحب ما لم يبق منى وما بقى

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ... ولكن من يبصر جفونك يعشق

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم ... بعثن بكل القتل من كل مشفق

عشية يعدونا عن النظر البكى ... وعن لذة التوديع خوف التفرق

مخاطرة

كان الوقت أصيلا ، وكان النسيم خائراً ضعيف المتن يمر بأطراف النخيل فيهتز له سعفها فى كبر وسخرية ، وكانت الشمس ترسل أشعتها صفراً براقة فوق الرمال الواهنة المجهودة بعد أن طال بها النهار واشتد قيظه واشتعل هجيره اللواح . وسار مع المتنبي عشرون بعيراً لحمل الزاد والماء ، وخمسة عشر جواداً يمتطيها خدمه وعبيده وقد اكتملت لهم عدتهم من السيوف والرماح ، وتقدم المتنبي الركب وخلفه محسد ومسعود ، وكان ينظر إلى الأفق البعيد حيران ذاهلا متجهم الوجه حزين النفس ، يردد الحسرات ، ويرسل الزفرات .

لم يكن حديث عهد بالصحراء وجفوة الصحراء ، ولم يكن قليل الخبرة بحياة شذاذ الأعراب وصعاليكهم الضاربين فى أنحائها ومالهم من أخلاق وعادات ، وما يتصفون به من ختل وتلصص واستباحة للأموال ، فإن لصعاليك الصحراء قوانين وشرائع غير ما تعارف عليه الناس من قوانين وشرائع ، ومن العجيب أن هذه الشرائع كثيراً ما تكون متضاربة متناقضة فهم يقتتلون لأوهن سبب ، ويصفحون لأوهن سبب ، ويغتصبون الأموال حراماً ليبعثروها فى الكرم والضيافة حلالا ، وقد يحمون الجراد ولا يحمون بنى الإنسان ، فإدراكهم لمعنى الشرف إدراك

غريب كثيراً ما يؤدى بهم إلى فعل كل ما يخالف قواعد الشرف.

عرف المتنبى حياة الصحراء وأخلاق الأعراب فى طليعة صباه ، حينما كان يتنقّل بين القبائل فى بادية الكوفة ليتلقى اللغة من أفواه رجالها ، ثم عرف الصحراء حينما أقام طويلا فى بادية السماوة بالشام بين بنى كلاب ، لهذا لم يكن على الصحراء دخيلا ، ولم يكن عن عادات الأعراب بعيداً .

سار الركب فى هذا البحر المائج الخضم بالرمال ، وذلك التيه الذى يضل فيه الخرّيت ويزوغ البصر ، وفى تلك الموماة التى يقول فى مثلها أبو الطيب : « يهماء تكذب فيها العين والأذن ». وقد طمست الأعلام ، وانمحت الصور ، وزالت الآثار ، ولم يبق إلا أن يعتمد الضارب فيها على الشمس أو بعض نجوم السماء . فضاء فسيح كأنه أملّ الأحمق ، وأرض مجدبة كأنها كف الشحيح ، وصخر أصم كأنه قلب اللئيم ، ورمال صفر كأنها بطون الحيّات. إنها أرض من الأحلام وجو من الأوهام ، جفت فيها الحياة وجفتها الحياة ، فلا نبات ولا عشب ، ولا شوك ولا قتاد ، لا يمر بها طير إلا خائفاً عابراً ؛ ولا وحش إلا منطلقاً واجفاً ، كأنها نسيت عند خلق الطين والماء فليس بها أثر للطين ولا قطرة من الماء . تبدو الكثبان بها وسنى مكدودة تمد رءوسها إلى السماء كأنها تتضرّع طالبة الفرار ، وتبدو الوهاد بها مظلمة مخيفة كأنها أشداق الأسود . جفوة وشقاء ومحول وجمود وقسوة ، ثم صمت ورعب وسكون هو سكون الموت ، ووحشة القبور .

سار المتنبى يقدم ركبه فى هذا التيه ، ولم يبق فى صدره من الآمال الضخام إلا أمل واحد ضئيل خافت هو أن يعيش ، هو أن يستطيع أن يخترق هذه الصحراء وفيه ذماء من حياة ، هو أن ينجو بجلده من هذا الخطر الداهم والبلاء الواقع ، لم يبق من مطامعه أن يكون أميراً أو ملكاً ، ولم يبق من آماله أن يكبت أعداءه ويدوس بقدمه فوق آنافهم ، ولم يبق من وساوس نفسه أن يترك فى الدنيا « دويًّا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر » طارت كل هذه الأحلام أمام عظمة الصحراء ومخاوفها ، لأن الصحراء كالبحر الهائج المضطرب ترتعد لهوله الحياة ، ويتوارى عنده الأمل ، وتخشع النفوس .

وبدا القمر موشكاً على الاكتمال فلف الصحراء فى غلالة من نور ، وكان المتنبى فوق صهوة جواده يرمى طرفه هنا وهناك كما ينظر الصقر من قنته إلى ما حوله من فضاء فسيح ، وكان يهمهم بكلمات تقطعها زفرة حيناً ، وزمجرة أحياناً ، فقرب منه محسد وقال :

ــ ألا نحط الرحال هنا يا أبى فقد انتصف الليل وكلّت الرواحل ؟

ــ إن سير الليل أروح للعبيد والدواب ، وكلما بعدنا عن الفسطاط زال الحذر وسرنا فى أمن واطمئنان .

ــ إننا نسير فى طريق لم تطأها قدم مسافر ، فمن أين ليد كافور أن تمتد إلينا ؟

ـ إنى أشعر بشيء من الراحة كلما بعدت الشقة بينى وبين الأسود ، لأننى أريد أن أنسى أنى رحلت إلى مصر وأنى قصدت الأسود ، ويخيل إلى أن بين المسافات والفكر اتصالا ، وأنه كلما شسعت المسافات بينك وبين شيء قل تفكيرك فيه .

ـ اترك كافورًا يا أبى لشأنه ، فأنت أعظم وأنبل من أن تحقد على الرجل أو تلقى لمثله بالا .

ـ لن يفلت من يدى هذا الوغد الذى جعل منى أضحوكة للشعراء والأمراء . إن أباك يا محسد إذا مسّت كبرياؤه فقد مس منه مكان السم فى الأفعى . انقل عنى يا محسد وأذع :

وأسود أما القلب منه فضيق ... نخيب ، وأما بطنه فرحيب
إذا ما عدمت الأصل والعقل والندى ... فما لحياة فى جنابك طيب

ـ يلوح لى أنك تخفف بهجائه عن نفسك بعض ما تجد.

ـ نعم يا بنى إن هجاءه يروّح عن نفسى ، ولا بد للمصدور أن ينفث ، وللحزين أن يرسل الدموع .

ـ حقًّا لقد أساء إليك ، وأغرى بك حثالة الشعراء ، ومسترزقة العلماء . كنت منذ شهر أسير بخطة مسجد عبد الله مع الشريف إبراهيم العلوى ، فقابلنا الشيخ المعتوه الموسوس محمد بن موسى الذى يلقبونه بسيبويه ، وكان على حماره ، وهو لا ينزل عنه لأمير أو عظيم ، فسلّم عليه الشريف ، ولما عرّفه بى صاح : أنت ابن المتنبى ! أهلا أهلا يا بن شاعر الغبراء !

لله أبوك فإنه يأتى فى شعره بالعجب العجاب . بالله سل أباك يا بنى عن قوله فى كافور :

يقلّ له القيام على الرءوس وبذل المكرمات من النفوس

أكان يريد حقًّا أن يقف للأستاذ على رأسه ، وأن يطلق رجليه فى الهواء ؟ يا له من مبتكر بارع ! ويا لها من صورة بديعة ! ويا لها من مهارة فائقة لا يستطيع أن يباريه فيها إلا « الأزعر الطمطمانى » أعظم مضحك بالمدينة ! واجتمع الناس حوله لارتفاع صوته وكثرة إشاراته ، ثم انطلق يقول : كان أبوك بالأمس خيراً منه اليوم حين قال لأبى الحسين المرى :

خير أعضائنا الرءوس ولكن فضلتْها بقصدك الأقـــدام

ثم هلم إلى يا بنى هلم ! أللإنس يقول أبوك الشعر أم للجن ؟ أيقوله ليفهمه الناس أم ليتمتموا به على رءوس المرضى والمصروعين لطرد المردة والشياطين ؟ أشهد إنى حللت الطلاسم ، وفككت الألغاز ، وتعلمت لغة الجن ، وقرأت خطوط الفراعنة ، ولكنى لم أفهم قول أبيك :

لا تجزنى بضنًى بى بعدها بقر

تجرى دموعى مسكوباً بمسكوب

لقد كنا نشمئز من أن يتغزّل الشعراء فى الغزلان حتى جاء أبوك فتغزل فى البقر ! ثم إنى أتحدى السيد الشريف ، وهو ابن أفصح قريش ، أن يدلنى على معنى لهذا الكلام الخنفشارى! فخجل الشريف ، وزاد فى خجله ازدحام الناس وانتصار بعض

طلاّب العلم لشيخهم الموسوس ، فقال : إن فى البيت خفاء من غير شك ، ولكن الشاعر يسأل الله ألا تجزيه الحسان بالضنى الذى حل به ضنى يحل بهن ، كما جزين دمعه المسكوب بدمع سكبنه لفراقه . فصاح المجنون: الله الله ! سبحان الفتّاح العليم! سبحان المنعم المتفضل واهب القوى والقدر ! ألا قال كما يقول الناس :

لا قدّر اللهأن تضنى ضناى بها كما جزتنى مسكوباً بمسكوب

على أن المعنى بعد كل هذا ضئيل سخيف ، لو رأيته ملقى على قارعة الطريق ما مددت يدى لالتقاطه . ثم انحى بعصاه على حماره وهو يصيح : أسرع بنا أيها الحمار قبل أن يفسد ذوقى وذوقك !

وما كاد يتم محسد حديثه حتى زفر المتنبى وقال فى كبر وأنفه : هؤلاء يا بنىّ لا يفهمون معنى الشعر ، فإن من أولى خصائصه وأكبر ما يدفع فيه إلى اللّـذة والاستمتاع ، أن يكون خفيـاً تضطرب فى إدراكه العقول .

واستمر الركب يقطع البيداء، يقيل وقت الظهيرة، ويعرّس فى أخريات الليل ، حتى رأى العبيد نخيلات عن بعد فصاحوا فى جذل وابتهاج : لقد بلغنا منابت العشب ! سنرى بعد قليل الزرع والماء ! وسنجد بعد قليل نخلا نلجأ إلى ظلها الظليل ! ولقد كانوا فى تفاؤلهم صادقين ، فقد بلغوا ماء يعرف « بنخل » ولكنهم ما كادوا يصلون إليه ويحمدون عاقبه السرى ؛

حتى وجدوا عنده شرذمة من لصوص الأعراب تسقي خيلها ، وما إن رآتهم حتى وثبت عليهم تبغي انتهاب ما معهم من خيل وإبل وغنائم ، فقاتلهم المتنبي وعبيده وأثخنوا فيهم ، فسقط من سقط منهم ، وفر الباقون يلتمسون النجاة . وفرح العبيد بانتصارهم ، واندفعوا إلى الماء يشربون ويسقون دوابهم ويغمسون رءوسهم فيه حباً له وشوقاً إليه ، ثم أخذوا يرقصون ويغنون على طريقتهم في الرقص والغناء .

ونزل أبو الطيب بنخل ضيفاً على أبي النجم ملاعب الأسنة ، وهو كبير الأعراب في هذه الحلة ، فأحسن ضيافته ، وأكرم مثواه . وبعد أيام نال فيها العبيد شيئاً من الراحة أمر المتنبي بالمسير وشد الرحال ، فعادت الخيل إلى خببها ، والإبل إلى وخيدها ، وكان السير مملا مضنياً ، والطريق وعراً موحشاً ، لا ترى فيه العيون إلا هياكل بشرية لقوم قتلهم ظمأ الصحراء ، أو إبل قضى عليها طول السفار .

ومضت هكذا أيام وأيام نال فيها طول الطريق وقلة الزاد من العبيد ، فضويت أجسامهم ، ونفذ صبرهم ، وشكست أخلاقهم وبدت فيهم روح السخط والتمرد ، وكان يسيطر عليهم ويتزعم جماعتهم عبدان ، هما : مجاهد وشعلان ، وكانا أقواهم نفساً ، وأشدهم عزماً ، وأمضاهم ذكاء وتدبيراً ، وأمهرهم لعباً بسيف أو تحكماً في جواد .

وأحس المتنبي بوادر هذا العصيان ، فأمر ابنه ومسعوداً أن

يراقبا العبيد عند ما يخلون إلى أنفسهم .

واجتمع العبيد فى معرّسهم ذات ليلة ، وأخذوا يشكون ويتذمرون ، وكان مسعود مختفياً خلف بعير يسمع ولا تراه عين ، فقال مجاهد .

ــ إن هذا المتنبى الأخرق يسوقنا إلى الدمار . فأجابه شعلان

ــ لقد ضلّ الطريق ما فى ذلك شك ، ولن تكون نهايتنا إلا مثل تلك العظام التى نراها فى الطريق ، والتى كان لها لحوم فأكلتها الصحراء ، والعجيب أننى كلما نصحت لعبده مسعود أن ننيخ الإبل للراحة ، وأن نبحث عن دليل يرشدنا إلى مكان ينقذنا من هذا التيه ، ونجد فيه ما تقتات به الدواب ، عبس فى وجهى وقال فى تيه وصلف : أتظن أنك أعلم من سيدى بمجاهل الصحراء ومناهلها ؟ إنك لو نبست بشىء من هذا الكلام أمامه لجعلك طعاماً لسيفه . فزمجر العبيد فى سخط واستنكار وهمسوا :

ــ ماذا نفعل إذاً ونحن أمام موت محقق ؟ فقال مجاهد :

ــ يجب أن نثور ونحن والحمد لله جمع يبلغ الخمسة والثلاثين ، ولا نعجز عن أن نقتله ونقتل ابنه وعبده . فقال أحد العبيد فى صوت خافت :

ــ ثم نأخذ جميع ما جمعه من أموال مصر وكنوزها ، فقال مجاهد :

ــ وماذا تنفع الكنوز فى هذه الصحراء الجرداء الماحلة ؟ فأجاب شعلان :

— إنى أعرف طريق العودة إلى نخل .

— إذاً تكون الثورة غداً حينما يأمرنا هذا المخاطر المجنون بالرحيل .

وسكت القوم وهومت رءوسهم للنوم ، وانطلق مسعود إلى سيده فنفض إليه جملة الخبر ، فأطرق المتنبي طويلا ثم رفع رأسه وقال : سنذهب معاً حينما يسيطر النوم على هؤلاء الكلاب ونستولى على ما نستطيع من سيوفهم ، فإن العقرب لا تلسع إذا قطعت حمتها . اذهب عنى الآن يا مسعود وأيقظ محسداً وسأكون معكما بعد قليل .

ومرّ من الليل ساعة ، فغادر المتنبي رحله وقابل ابنه ومسعوداً ، وانسلّوا تحت ستار الظلام إلى معرس العبيد فرأوهم نياماً . وقد ألقى كل سائف منهم سيفه إلى جنبه ، فمشوا بينهم فى هدوء لا يسمع له ركز ولا تحس نأمة ، وندلوا سيوفهم واحداً بعد واحد . والعبيد فى سبات كاد يجعله السغب والكلال موتاً . وتبلّج ضوء الصباح ، وتيقظ العبيد فتفقدوا سيوفهم فلم يجدوها فذعروا أول الأمر ، ثم عرفوا أن المتنبي شعر بمكيدتهم فسلبهم سلاحهم وهم رقود ، فقال مجاهد :

— لقد سرق سيدنا الأحمق أسلحتنا ونحن نيام ، ولكن هذا لن ينجيه من أيدينا ، إن بضعة رجال منا يكفون للقبض عليه ولو كان متسلحاً بسيوف الهند كلها : هلموا إلى الثورة أيها الشجعان !

فقام العبيد وكان المتنبي قد أخذ لهم الأهبة ، فما كادوا يصلون إليه وإلى من معه حتى أركضوا فيهم جيادهم ، وأخذوا يضربون بالسيوف يميناً وشمالا ، فبهت العبيد وذعروا وتملكهم الوهل ، وفر بعضهم ، وقبض أبو الطيب على مجاهد وشعلان وبعض الثوّار ، وأمر أن يقيدوا وأن يضربوا بالسياط حتى تتهرأ أجسادهم ، وتضرّع له العبيد وتذللوا وأعلنوا التوبة ، وشفع فيهم محسد فأطلقهم فانكبوا على يديه يقبلونها خاضعين آسفين .

ولم تمض أيام حتى بلغ المتنبي « حِسْمَى » وهي أرض طيبة كثيرة الماء تحيط بها الجبال الشامخة ، وينبت بها كثير من النبات والفاكهة ، فنزل بها القوم بعد أن نهكتهم الصحراء وشفهم طول السفر وبعد الطريق . وكان بنو فزارة يخيمون بحسمى ، وكان لأبي الطيب صلة قديمة بأميرهم حسّان بن حكمة ، فنزل على جار له حتى لا يجر على صديقه غضب كافور إذا علم بنزوله عنده ، وكان هذا الجار يدعى « وردان بن ربيعة الطائي » وكان لئيماً خسيس الطبع جشعاً خائناً ، فما كاد يرى حمول المتنبي وذخائره حتى وسوس إليه الجشع أن ينتهب منها ما يستطيع ، وبأي وسيلة يستطيع ، فأظهر الحب والمودة لعبيد أبي الطيب ، وكان يدعوهم إلى خبائه ويدفع زوجه وكانت ذات ملاحة إلى مجالستهم ومجاملتهم وإغرائهم ، وتمكن بهذه الذرائع الخبيثة من دفع العبيد إلى استراق كثير من أموال المتنبي وأمتعته ، وكان للمتنبي سيف مقبضه ونعله من الذهب الخالص ، فطمع

فيه وردان وزين لشعلان سرقته ، فتربّص ذات ليلة حتى علم أن القوم أدركهم النعاس ، ومشى فى رفق وحذر ثم استرق السيف من الرحل ، ودفعه إلى مجاهد وأمره أن يركب ويسرع إلى وردان ، ثم همّ بأن يسرق فرس المتنبي ليفر به ، ولكن المتنبي رآه وهو يحاول حل رسن الفرس فزجره فلم يزدجر وبدا فى وجهه الغدر والعناد ، فضرب وجهه بالسيف فشطره شطرين ، وخرّ العبد صريعاً ، فقال :

لئن تلك طيئٌ كانت لئاما فألأمها ربيعة أو بنوه
مررنا منه فى حسمى بعبد يمج اللؤم منخره وفوه
أشذّ بعرسه عنى عبيدى فأتلفهم وما لى أتلفوه
فإن شقيت بأيديهم جيادى لقد شقيت بمنصلى الوجوه

وأسرع المتنبي بالرحيل عن حسمى بعد أن أقام بها شهراً ، وزادت وساوسه واضطربت نفسه حينما اطلع على كتاب لكافور يطلب فيه إلى روساء القبائل النازلين بالصحراء القبض عليه وإرساله إلى الفسطاط مكبّلا ، بعد أن أغراهم بالعطاء الجم والمال الكثير .

وكانت للمتنبي ثقة بفتى من بنى فزارة يسمى « فليتة بن محمد » فسأله أن يصحبه فى الطريق ، وأن ينحرف به عن المسالك التى يطرقها العاوون وراءه المتعقبون لأثره .

وانطلق الركب بين الحذر والوجل ، وأرسل المتنبي نظره إلى نواحى الأفق البعيد خائفاً مذعوراً ، « إذا رأى غير شىء

ظنه رجلا » كما يقول ، وما مر بالقوم يومان حتى صاح فليتة ذات صباح ، وكان مطرح النظر ، يرى بعينى زرقاء اليمامة : إنى أرى عن بعد سرباً من الخيل يسير إلى جانب الجبل ، وأحسب فرسانه من أعوان كافور. فمد المتنبي عنقه ، وحدّق بعينيه وقال : صدقت يا ابن محمد . يجب أن نختفي جميعاً وراء هذه الأكمة وهي مناجد قريب . ومال بجواده نحوها فسار خلفه العبيد وهم لا يعلمون من الأمر شيئاً ، ووقف هو ومن معه خلف الأكمة ساعتين أو أكثر ، ثم أرسل مسعوداً ليكشف له أمر الفرسان فلم يجد لهم أثراً . فقال فليتة : أغلب الظن أنهم عادوا من حيث أتوا بعد أن يئسوا من الطلب . وزفر المتنبي وقال : ألا يزال هذا الأسود يطلبني ويسأل عني كل رملة من رمال الصحراء ؟ تعس العبد . والله لن ينال مني ظلا .

قطعت بسيرى كل يهماء مفزع ... وجبت بخيلى كل بيداء بلقع
وثلمت سيفى فى رءوس وأدرع ... وحطمت رمحى فى نحور وأضلع
وفارقت مصرا والأسيود عينه ... حذار مسيرى تستهل بأدمع
ألم يفهم الأفعى مقالى وأننى ... أفارق من أقلى بقلب مشيع ؟
ولا أرعوى إلا إلى من يودنى ... ولا يطبينى منزل غير ممرع
أبا النتن ، قد قيدتنى بمواعد ... مخافــة نظم للفؤاد مروع
وقدرت من فرط الجهالة أننى ... أقيم على كذب وصيف مصنع
وأترك سيف الدولة الملك الرضا ... كريم المحيا أروعا وابن أروع
فتى بحره عذب ، ومقصده غنى ... ومرتع مرعى جوده خير مرتع

ورحل القوم بعد أن هدأت أنفاس دوابهم فواصلوا السير حتى وردوا « البويرة » بعد ثلاث ليال ، فأقاموا بها يومين ثم رحلوا عنها يغذّون السير ويطوون المراحل إلى أن نزلوا « بسيطة » وهى أرض تقرب من الكوفة ، فانزاح الهم قليلا عن صدر أبى الطيب ، وابتهج العبيد بقرب انتهاء الصحراء ، وأخذوا يرقصون وينغمون أصواتاً يظنونها غناء وتطريباً ، وقد زاغت أبصارهم من وهج الصحراء وشدة قيظها ، فرأى بعضهم نعامة فظنها نخلة ، ورأى ثوراً فظنه منارة مسجد .

ثم أمر أبو الطيب بشد الرحال فانطلق الركب ، وما زال ينتقل من حلة إلى حلة ، ومن منهل إلى منهل ، حتى بدت له معالم الكوفة بمآذنها وقبابها ، فكبّر القوم وهللوا ، وصاح محسد : هذه هي الكوفة ! هنا ولد أعظم شاعر ! هنا ولد شاعر العرب الذى تفتّحت له سماوات الوحى ، وتدانت له قطوف الإلهام ! لقد قهرنا الصحراء وأذللنا صعابها وشققنا منها قلباً لم يشقه منسم ولا حافر ، وألقينا على كافور درساً لن ينساه ، وعلمناه أن أظافره وإن طالت لن تمس للبطل العربى الهمام شسعاً !

ودخل المتنبي الكوفة بعد أن قضى فى الصحراء ثلاثة أشهر ، وبعد أن نجا من أهوالها كمن ينجو من ماضغى أسد أو يقذف به اليم إلى الساحل بعد صراع عنيف . دخل الكوفة شامخ الرأس تياهاً وهو يقول :

ألا كل ماشيـــة الخيزلى فدى كل ماشية الهيدبى
ضربت بها التيه ضرب القما ر إما لهذا وإما لذا
لتعليم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أنى الفتى !
وأنى وفيت ، وأنى أبيت وأنى عتوت على من عتا
وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكى ؟
بها نبطى من أهل السواد يدرّس أنساب أهل العلا
وأسود مشفره نصفـــه يقال له : أنت بدر الدجى
ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

ركود

كانت الكوفة فى ذلك الحين لا تزال مستبحرة العمران كثيرة السكان واسعة الرقعة ، بها نحو خمسين ألف دار من ربيعة ومضر ، ونحو أربع وعشرين ألف دار لبقية القبائل العدنانية ، وستة آلاف دار للقبائل اليمنية ، وبها كثير من العلويين الذين اتخذوها موئلا أيام الدولة الأموية لكثرة أنصارهم بالعراق ، وللفرار بأنفسهم من موجات الظلم والاضطهاد .

وكان المسجد الذى بناه على بن أبى طالب لا يزال ماثلا بعد أن جدد بناءه وأقام ما انهار منه يوسف بن عمر عامل هشام ابن عبد الملك على العراق ، وكان هذا المسجد روضة العلماء والأدباء والمحدثين ، ومباءة طلاب العلم والأدب ، وهو المسجد الذى تلقى فيه أبو الطيب فى طليعة صباه علوم الأدب واللغة ، وفيه كان يجلس إلى الناشئ الأصغر الشاعر ويكتب عنه ما يمليه من شعره على الطلاب .

وكان يحكم الكوفة حين عاد إليها أبو الطيب وال من قبل معز الدولة له ميل إلى الأدب والشعر ، وحب للعلم والعلماء ، ولكنه كان شديد الحرص على منصبه ، كثير الخوف والوساوس من كل ما يؤدى إلى سخط بغداد أو يجر عليه مصيبة العزل التى أصبحت شبحاً مخيفاً يساوره فى اليقظة والمنام .

بلغ أبو الطيب الكوفة بعد رحلته المضنية القاسية الجريئة ، فاتجه نحو داره وكانت بمحلة العلويين بالقرب من المسجد الجامع ، فمشى فى طرق اشتبهت عليه منافذها ، ولقى أناساً ليس له بهم عهد ، فقد غاب عن الكوفة وعن أهلها أكثر من ثلاثين عاماً ، مات فيها أقوام وولد أقوام ، وتهدّمت معالم وقامت معالم ، وليس ببعيد أن يكون قد مرّ بباله وهو يتطلّع يميناً وشمالا فى دهشة وعجب ، ذلك الرجل الذى بعثه إخوانه من أهل الكهف بعد أن لبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً لينظر لهم أيها أزكى طعاماً وليأتيهم برزق منه .

كان ينظر فإذا الفناء الرحيب الذى كان يلعب فيه مع أترابه أصبح دوراً ومتاجر ، وإذا القصر الذى كان آهلا بسكانه عامرا بأسباب الغنى والسؤدد مائجاً بعبيده وجواريه أصبح طللا دارساً وربعاً محيلا ، وإذا الشجرة التى كانت لا تتجاوز قامته حينما كان يمر بها وهو ذاهب إلى المكتب ، أصبحت دوحة باسقة ممتدة الأفنان . كل شيء تغيّر ، وكل مظهر تبدّل ، والزمن كفيل بأن يغير كل شيء . « ومن ذا الذى يا عز لا يتغير ؟ » إنه هو نفسه تغير ، فليس هو الآن ذلك الطفل المرح الوثاب الذى يسره كل شيء ، ويضحكه كل شيء . أين هو الآن من ذلك الطفل بعد أن فارقه ثلاثين عاماً ثم عاد إليه بنفس جديدة ، وخلق جديد ؟ إنه الآن لا يقنع بما دون الملك ، ولا يرضى بأقل من اقتناص البزاة إذا اصطاد غيره البغاث والرخم ، ولا يهدأ إلا

إذا حلّق فى السماء ورأى الناس تحته كأنهم ذباب أو نمال . إنه الآن يقول :

وما تسع الأزمان علمى بأمرها   وما تحسن الأيام تكتب ما أملى

إنه الشاعر الطموح ، والشارد الجموح ، والصخرة النطوح . إنه هو الذى ازدهى على الأمراء وتحكم فيهم ثم هجاهم ، وهو الذى تزلّف إليه العظماء فازدراهم ، وسمت إليه عيون الشعراء فبهرهم وأخرسهم ، وحاول علماء الأدب واللغة أن يجروا معه فى شوط فبزهم وأخمد أنفاسهم . إنه الفارس المغوار ، والبطل الكرّار ، الذى تحدى الصحراء وأرغم أنف البيداء ، وصارع الموت وأفنى الفناء .

يحاذرنى حتفى كأنى حتفه   وتنكزنى الأفعى فيقتلها سمى

هذه هى نفس أبى الطيب حينما عاد إلى الكوفة . وهذه بعض خواطره التى كانت تضطرب فى صدره .

بلغ المتنبى داره فطرق ابنه الباب فأسرع « مفلح » إلى فتحه ، ودخل أبو الطيب ومحسد وبعض عبيده ، فصاح محسد : أين أمى ؟ فأطلت من أعلى السلم امرأة فى نحو السابعة والثلاثين ، لا تزال تزهى بريئان شبابها ، وتدل بنضرة عودها ، وكان فى وجهها نبل واستسلام وثقة ، وفى نظراتها حيرة وذهول ودهشة . وهى من أسرة عريقة بالشام فتن بها المتنبى وفتنت به ، وكانت تشبهه فى قوة الجلد وبعد الهمة ومضاء العزيمة .

لم تكد الأم تسمع صوت محسد حتى أسرعت إليه فوثبت

فوق درجات السلم وثباً ، ثم مدت ذراعيها فى شوق وحنان فطوته إلى صدرها وهى تغمغم :

ــ وهكذا يا ولدى يلتقى الشتيتان وإن طال الزمان . ويعود القارظان بعد قنوط وإياس . ثم ألقت على جبينه قبلة فيها كل معانى الحب والشوق ، واتجهت نحو المتنبى فى إجلال وشغف فعانقته عناق المحب الواله المهجور ثم قالت :

ــ الحمد لله على سلامتك يا سيدى . لقد طالت الغيبة وانقطعت الرسائل منذ بعثت بى إلى هنا ورحلت وحدك إلى مصر ، ولقد كادت الوساوس تعبث بى لولا ما كان يملأ المدينة من أخبارك بين الحين والحين ، فإنك يا سيدى ما كنت تنشد قصيدة بمصر حتى تطير إلينا أبياتها بعد قليل . مالى أرى سيدى مضنى هزيلا ؟

ــ لقد لوحتنى الصحراء يا فاطمة ، وكان القيظ شديداً والسير مجهداً والطريق وعراً كثير المخاطر ، ولكن شوقى إليك هون علىّ كل شيء . كيف الحال ؟ وكيف قضيت هذه السنوات الخمس ؟

ــ بخير يا سيدى ، ولقد كان لسيدتى زينب زوج الشريف الحسن بن عمر العلوى الفضل الأكبر فى إزالة وحشتى ، فإنها كانت تكثر من زيارتى وتنقل لى عن زوجها أخبارك بمصر ، ومنذ شهر وصلت قصيدتك التى هجوت بها عبد الإخشيد وكانت سمر الناس وحديث الأدباء ، ولقد علمت منذ أيام بقرب قدومك

إلى الكوفة ، فقد أرسل إلينا الوالى أحد أعوانه ليتحقق من عودتك ، فلما أخبره مفلح بأنك لا تزال غائباً أسر إليه بأنك خرجت من مصر منذ أشهر ، وأن معز الدولة بعث إلى الوالى طلباً منه استقصاء خبرك. فأطرق المتنبي مفكراً ثم رفع راسه وقال :

معز الدولة الديلمى الغاشم مقطوع اليد اليسرى يسأل عنى ؟ ما هذا النحس الذى يلاحقنى ؟ أأفر من الأسود الماكر فى مصر ليطاردنى الأعجمى الغادر بالعراق ؟ قاتل الله الشعر الذى يصلنى بأمثال هؤلاء . لن أقول من الآن شعراً ، ولن يظفر منى أمثال هؤلاء المناكيد ببيت واحد . ثم لمح على الحائط بيتاً من الشعر كان كتبه بخطه وهو فى العاشرة فقرأ :

وإلا تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتلاق الذل غير مكرم

فأخذته رعدة ، وطافت بنفسه ذكريات وأحلام وصاح : نعم ، إننى خلقت فارساً قبل أن أخلق شاعراً ، وقد ألقيت عنانى للشعر طويلا فأحلنى دار الهوان وزحزحنى عن قمة المجد ، وسأسكت اليوم شعرى ليتكلم سيفى .

من اقتضى بسوى الهندى حاجته أجاب كل سؤال عن هل بلم

ثم قام فخلع ثيابه واستلقى على فراشه شاخص العينين شارد الفكر مضطرباً ، فقد كانت تطوف بذهنه أطياف من الماضى القريب والبعيد ، وصور من الحوادث ، وتهاويل من الآمال والأحلام التى ذهبت بدداً وآضت حطاما . مرت به أيام صباه وما كان فيها من أمل مكبوت كالزهره المنطوية فى كمها ، والنار

المخبوءة تحت رمادها ، ومرت به أيام رحلته إلى دمشق فى طلب العلم والأدب وهو بعد غلام لم يطر شاربه ، وما قاسى فى تلك الملاوة من فقر وضنك وسغب ، ومرت به أيام استجدائه بالشعر ذليلا متصاغراً ينتقل على قدميه من بلد إلى بلد . ويمدح من هو بالصفع أجدر منه بالمديح ، وينثر الدر فوق رءوس الخنازير ، ثم مرت به أيام حلب وأيام سيف الدولة حين بلغ القمة ووصل بعد طول الكد إلى الغاية ، فاختلج فؤاده وهاجت بلابله ، وطافت بوجهه سحابة حزن غائمة ، وضرب كفّاً على كف ، فقد كان ينبغى ألا يفارق سيف الدولة ، وكان ينبغى أن يصل حظه بحظه فى ميزان القدر ، ثم مرت أيام كافور وما كان فيها من آمال طارت قبل أن ينبت لها جناح ، ودفنت قبل أن تلمح نور الحياة ، ثم دار فكره دورة سريعة نحو ما يستقبله من أيام وأحوال ، وما ينتظره من أحداث وخطوب ، هذا معز الدولة يسأل عنى . لقد علم بفرارى من مصر . ماذا يريد منى ؟ إنه رجل خبيث ماكر منتقم ، ووزيره المهلبى شر منه وأشد نكراً ، إننى سأطوى صحائف الشعر ، لقد نلت من جرّائه ما كفانى ، سأقيم فى دارى ، وسأنكبّ على دراسة الأدب واللغة ، ولن يدوى لأبى الطيب بعد اليوم فى الآفاق صوت ، ولن يشعر أحد بمكانه . لقد نال من الشهرة والمال فوق ما تطمح إليه الشهرة ويصبو إليه حب المال ، ولكن تلك النفس النزوع لا تطيعنى ، وهذه الروح الوثّابة لا ترضى بالسكون كأنها الطائر القلق لا يستقر فى

وكن ، إنني خلقت من عصف الرياح وهدير السيول وقعقعة الرعود ، فلن أستطيع أن أجلس هادئاً في عقر داري ألقن هذا بيتاً من الشعر ، وأصحح لهذا كلمة في اللغة . لم أولد وفي يدي مغزل ، ولكني ولدت وفي يدي سيف بتّار . لست ممن يجلس في شمس الشتاء ويستظل من لفحات الهجير بدوحة أو جدار.

طوال الردينيات يقصفها دمي وبيض السريجيات يقطعها لحمي

لا . لا . لن أستطيع القرار ، ولن أستطيع أن أثبت وأدع العالم يموج ويتحرك ، ولن أستطيع أن أدع الفلك يدور دون أن يتحدث باسمي ويملأ الأسماع بمحامدي ، ولن أطيق أن أرى الأرض تقسّم دولها بين منتفخي البطون وأنا واقف أنظر إليهم غرثان ظامئاً . كان لي أمل في كافور ، وكان لي أمل في فاتك ، ولكن هيهات . هيهات . ذهب كل شيء . ولم يبق إلا أن أكتفي من الغاية بما يقرب من الغاية ، وإذا فاتني الملك فلن تفوتني المنزلة الرفيعة بين ملوك الأرض ، ولن يفوتني أن يعدني الناس ملكاً من غير صولجان . أما أن أقبع في داري فليس إلى ذلك من سبيل . ولكن كيف أتّقي خطر مطامحي؟ وكيف أتجنب ما تجره مصاحبة كبار الساسة من ويلات ؟ يجب أن أحذر . ويجب أن أتعلم من تجاربي . ويجب أن أبتعد قليلاً حتى أصون لنفسي كرامتها وعزها . وحتى يطلبني الملوك ولا أطلبهم ، وحتى أتخلّص من وصمة الشاعر المستجدي الذي يطرق كل باب ويجلس على كل خوان . هذا هو الذي يجب أن يكون ، الأمر

لله من قبل ومن بعد . ثم أخذته سنة فنام .

وشاع خبر وصول المتنبي إلى الكوفة فتنقّل فى كل دار ، ورف فوق كل سامر ، وردده كل لسان ، فكانت المرأة تنظر من نافذة دارها وتصيح بجارتها قائلة :

ـ أعلمت أن ابن الحسين قد وصل إلى الكوفة بالأمس ؟

ـ لقد أخبرنى بذلك أبو محمد فياله من خبر غريب . إن زوجه كانت من الصابرات حقًّا ، ولعلها اليوم أسعد امرأة بالكوفة .

ـ كانت جدته تتمنى هذا اليوم ، فقد كانت وهى على فراش الموت تتلهّف للقائه ، وتلثم آخر رسالة بعث بها إليها ، وكان لسانها يتلعثم بترديد اسمه حتى ماتت .

ودخل طالب مسجد الكوفة فى الصباح وكان يزخر بالعلماء والطلاّب فرفع صوته قائلا :

ـ أيها الطلاب لقد عاد بالأمس أبو الطيب المتنبى إلى وطنه . فصاح أحدهم :

ـ أهلا أهلا بشاعر العرب ، إن المتنبي مجد الكوفة ومجد العروبة ، لقد كنا بالأمس نتذاكر قوله :

وإنى لنجم تهتدى صحبتى به إذا حال من دون النجوم سحاب

غنى عن الأوطان لا يستفزنى إلى بلد سافرت عنه إياب

فقال أحد الشيوخ : لقد أنذرنا أبو الطيب بأنه لن يعود إلى الكوفة . ولكن الله كذّب ظنه وعاد المتنبى ليملأ آفاقنا تغريداً .

والتقى فى سوق الورّاقين الحسن العلوى بحماد الوراق فحياه وسأله :

— أبلغك وصول أبى الطيب إلى الكوفة بالأمس ؟

— بلغنى يا سيدى ؟ . إن الخبر ملأ المدينة ، إن صبيان المكاتب يترنمون بأهازيج الترحيب به .

— أظنك تعرفه وهو غلام ؟

— أعرفه يا سيدى ! لقد كان يتردد على دكانى كل يوم ، ولكنى لم أكسب منه درهماً ، كان يتناول الكتاب ويجلس على هذه الدكة ، فاذا مرت ساعة أو نحوها أعطانية لأضعه فى مكانه ، فإذا طلبت منه أن يشتريه . أخبرنى بأنه حفظه عن ظهر قلب من الدفـّة إلى الدفة .

وأقبل لزيارة المتنبي كبار العلماء والأدباء فى المدينة ، وتوافد عليه الطلاب يسألونه ويقيدون عنه ما يملى ، وكان يجلس على كرسى ضخم فى صدر القاعة وبجانبه محسد ، وقد وقف عند الباب عبده مفلح ، وكان بين زوّاره الشريف الحسن العلوى وابنه الحسين ، وكان فتى فى العشرين وسيم الطلعة حسن الحديث حاضر البديهة ، فقال العلوى :

— لقد كانت الكوفة تتشوّف إلى قدومك يا أبا الطيب بعد أن تراجع مجدها وكادت تذوى أفنان الأدب والشعر فيها .

— إننا رأينا ما رأينا من ملوك وأمم وممالك ، فعرفنا أن كل شىء فى هذه الدنيا هباء ، وأن آمال المرء فيها هواء .

— لقد نلت فى هذه الرحلة ما لم ينله شاعر ، وبلغت منزلة تتقطّع دونها أعناق الآمال .

ـ وماذا حصلت عليه بعد ذلك يا ابن الرسول ؟ لا شيء إلا أنى عدت إلى دارى فى الكوفة أحمل فوق كتفى أثقال السنين ، بعد أن خرجت منها يافعاً ريّان الشباب .

ـ خرجت سنة تسع عشرة وثلثمائة فاراً من القرامطة ؟

ـ نعم يا سيدى ، فلقد كان القرامطة بلاء على الكوفة وعلى العراق كله .

ـ لقد دمروا وأحرقوا كثيراً من الدور والمساجد ، وكم نهبوا وسلبوا وفعلوا الأفاعيل .

ـ وكنت فى ذلك الحين شادياً فى الشعر فنظمت قصيدة أهجو فيها زعيمهم أبا طاهر فبلغه خبرها فأهدر دمى ، فخرجت فاراً مع أبى فى حماية الليل وستاره حتى بلغنا بغداد فلم أقم بها طويلا حتى ودعت أبى واتخذت طريقى إلى شمالى الشام .

ـ وقد مضى منذ ذلك الحين أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا يزال هؤلاء القرامطة يعيثون بالفساد حول الكوفة ، إنهم قوم فجرة يستحلون كل شيء ، ولا يخضعون لحاكم ، ولا يرجعون إلى شرع ، وبينما هما فى الحديث إذ دخل مفلح ينبئ المتنبى بقدوم الوالى ، فلم يزد على أن هز رأسه ليدل على أنه علم بالأمر . ودخل الوالى فهنأه بسلامة قدومه ورد المتنبى تحيته بتحية امتزج فيها الإجلال بتواضع الكبراء ، وذهب الحديث مذاهب شتى ، وجاء ذكر سيف الدولة وكافور فقال الوالى :

ـ لقد كانت تصل إلينا قصائدك فى الأسود فكنا نقرؤها

ونطرب لها من وجهة أنها شعر ، لا من وجهة أنها قيلت فى كافور . ويعجبنى فيك يا أبا الطيب أنك لا تصرف القصيدة كلها إلى ممدوحك كما تفعل جمهرة الشعراء ، ولكنك تتصدق عليه بأبيات قليلة ، ثم تتجه فى بقية القصيدة إلى الحكمة العالية وخوالج النفوس وما يجيش به صدرك من همم وعزائم ، ولقد أحزننى حقًّا أن تقول فى كافور :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

هذا بيت لم تتفتح عن مثله شفة شاعر منذ عرفت الأوزان، وقيلت الأشعار . وكان من مصائب القدر أن يبقى درّه مخزوناً فى أطواء الزمان حتى ينثر على الأسود الحبشى . ما أجل المعنى ، وما أروع اللفظ ، وما أبعد الخيال . وأبدع ما فى البيت كله كلمة « شىء » هذه . فما أحلى هذا التنكير وهذا التجهيل الذى تضمنته . كان مولانا معز الدولة أحق بهذا البيت وأجدر . فهو زند الخلافة وعضدها ، وحامى حمى المسلمين ، ومعلى كلمة الدين ، والملك الذى له من القوة والسلطان ما يصح أن يقال فيه مثل هذا الكلام . أذاهب أنت إلى بغداذ يا أبا الطيب بعد أن تستريح قليلا بالكوفة ؟

— إنى سأستريح طويلا يا سيدى ، وسيستريح معى شعرى.

— لا . إن شعرك لا يستريح ، إن الطائر لا يستطيع إلا أن يغرد ، والمسك لا يملك إلا أن يفوح . قل لى بالله متى تذهب إلى بغداد حتى أكتب إلى مولاى معز الدولة ؟ لقد كتبت اليوم

رسالة إلى الوزير المهلبي أخبره فيها بقدومك ، وأكبر الظن أنه لن يدعك تستريح يا أبا الطيب . إن الناس يطمعون فى أدبك وشعرك ، لقد رفعت سيف الدولة إلى القمة ، وملأت الدنيا بمديح كافور ثم بهجائه ، وأظنك لا تبخل على الخلافة ورجالها ببعض ما نثرته على تابعيها من الأمراء .

ــ سأنظر فى هذا يا سيدى ، ولكنى الآن أوثر الهدوء والاستقرار بعد أن طوّحت بى الطوائح .

ــ لست ملكاً لنفسك يا أبا محسد ، وإنما أنت ملك العرب وملك الخلافة ، وكان يجب على ابن العراق ألا يشيد إلا بمجد العراق . خلصنى بالله يا أبا الطيب ، فقد ينالنى لوم من دار الخلافة إذا لم تسرع إليها .

ــ لا لوم ولا تثريب يا سيدى ، والأمور مرهونة بأوقاتها .

وانفضّ المجلس ، وتوالت الأيام وتوالت المجالس ، وفى كل يوم يزيد أبو الطيب سأماً وتبرماً . إنه لا يستطيع أن يعيش كما يعيش الناس ، لقد عاد إلى ديوان شعره فرتبه وكتبه وأسقط منه ما أراد أن يسقط وزاد فيه ما راق له أن يزيد ، وانتهى الديوان ، وعادت الحياة إلى ركودها . ورأى أن يتخذ الصيد مسلاة فما مرت أيام حتى ضجر بالصيد وملّ الركوب ، ورجاه صديقه الحسن العلوى أن يمدح بنى هاشم بقصيدة فسقط القلم من بين أنامله ولم يستطع أن يخط حرفاً ، ماذا جرى له ؟ وما هذا الحنين إلى الغربة والانتقال ؟ إنه اليوم بين أهله وولده يعيش فى أرغد عيش وأرفه حال ، فما هذا الضجر الذى ينتابه فى كل حين ؟ وما هذا النزوع

إلى القلق والاضطراب فى الأرض ؟ إن من الناس من تتعبهم الراحة ويضنيهم طول الجمام ، يجب أن يرحل عن الكوفة ، ويجب ألا يحصره وطن ، إن العباقرة لا وطن لهم أو إن وطنهم الأرض كلها. ولكن أين يذهب ؟ لقد رجاه صديقه على بن حمزه فى أن يزوره ببغداد ، ولقد توالت كتبه وتتابعت رسائله، وكان فى هذه الرسائل ملحاً ملحفاً ، فهو لا يريد أن يدفن أبو الطيب نفسه حياً بين عجائز الكوفة وشيوخها ، وهو يضن بهذه الجذوة المتوقدة أن تخمد ، وبهذا النبوغ النادر أن ينطفىء ، وبهذا الشعر الرائع أن يجبل . ويقول إن بغداد تتشوّف إلى لقائه ، وتمد أعناقها لترقبه من الخليفة ومعز الدولة والوزير المهلبي إلى صغار المتأدبين . فلم لا يذهب إلى بغداد ؟ ولم لا يعلم دعاة الشعر فيها أن الشعر شيء غير نظم الكلام ؟ ولم لا يلوح بشعره لمعز الدولة أو للمهلبي حتى يأتيا إليه حبوا ؟ ولم لا يضرب من كانوا يتيهون عليه ويخدعونه كسيف الدولة وكافور ضربة قاصمة بما يناله من الحظوة وعظيم المنزلة عند معز الدولة ؟ ولم يستبعد أن ينال من معز الدولة ما تصبو إليه نفسه من الولايات إذا أحسن التأتى وأتقن الخداع وعرف الطريق إلى نفسه ؟ يجب أن يذهب إلى بغداد غداً . نعم غداً يرحل إلى بغداد . ويفيق المتنبي من هذه الغمرات فيسمع صوته وهو ينادى محسداً ، ويقبل محسد فيبتدره قائلا :

— قل لمفلح يعد الخيل والإبل فسنرحل غداً إلى بغداد .

وتدخل فاطمة وعلى وجهها مسحة من الحزن لهول ما علمت

من وشك رحيله وتقول :

ـ أتطول هذه الرحلة يا سيدى ؟

ـ لا أدرى يا فاطمة ، ولكنى لن أتركك وحدك هذه المرة ، فإذا اطمأن بى المقام ببغداد أرسلت مفلحاً لإحضارك.

وجاء الغد وأعدت الركائب فى الصباح ، ووقف المتنبى وفى وجهه لمحات يختلط فيها اليأس بالأمل ، فقبّل زوجه ثم صاح فى وديعة الله . وامتطى جواده وهو يردد :

ليس التعلل بالآمال من أربى   ولا القناعة بالإقلال من شيمى

ولا أظن بنات الدهر تتركنى   حتّى تسد عليها طرقها هممى

استفزاز

بلغ الركب بغداد فى أصيل يوم من ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة ، ونزل أبو الطيب وابنه وعبيده فى خان من أفخم خانات المدينة ، وكانت بغداد فى ذلك الحين لا تزال تحتفظ ببقية من عظمة العباسيين وحضارتهم ومجدهم الأثيل مع ما أصابها من ظلم معز الدولة وإقطاع قواده وجنوده القرى جميعها ومصادرته الغاشمة للأموال ، وكانت عش العلماء ومؤئل الأدباء والشعراء وملتقى أمم الأرض من كل أفق ودين ، وكانت تزخر فى هذا الحين بالجواسيس وأصحاب الأخبار فمنهم جواسيس لمعز الدولة ، وجواسيس لكافور ، وجواسيس لسيف الدولة ، وجواسيس لعضد الدولة ملك فارس ، وآخرون للفاطميين ملوك المغرب .

وصل المتنبي بغداد فتشمم الجواسيس الخبر ونقله بعضهم إلى معز الدولة ، وأرسله بعضهم إلى ممالكهم على أجنحة الطير ، وما كاد معز الدولة يتلقى الخبر حتى بعث فى طلب وزيره المهلبي. وكان معز الدولة فى التاسعة والأربعين قوى البناء قوى الشكيمة أصلع الرأس شديد احمرار الوجه له عينان كأنهما عينا نمر ، وكان مقطوع اليد اليسرى وبعض أصابع اليمنى شرساً سريع الغضب حقوداً شحيحاً ، ولم يكن إلا قائداً ماهراً وشجاعاً واسع

الحيلة ، أما الشعر وأما الأدب فكان بينه وبينهما بون بعيد . نشأت به وبأخويه دولة بنى بويه ، وكان فى أول نشأته فقيراً يعيش من جمع الحطب وبيعه ، وحينما استولى على بغداد انتزع الحكم من أيدى الخلفاء واستبد به . فخلع الخليفة المستكفى بالله وسمل عينيه ، وولى مكانه الخليفة المطيع على أن يكون شبحاً من أشباح الماضى لا ينقض ولا يبرم . أما وزيره المهلبى فكان رجلا أديباً شاعراً لين الجانب خصيب الجناب ، عرف البؤس مُراً أيام شبابه فتمسك بمنصبه حريصاً عليه وعطف على الأدباء البائسين ، وكان مجلسه منتدى رحيباً للعلماء والأدباء والشعراء أمثال أبى الفرج الأصفهانى والسرى الرفاء وابن البقال وابن سكرة وابن الحجاج .

دخل المهلبى على معز الدولة فسمعه عن بعد وهو يهدر هدير البعير ، فلما رآه صاح :

— لقد قدم المتنبى بغداد الساعة فماذا ترى ؟ أليس فى قصرى من شعراء بغداد والمتطفلين عليها من يزيدون على الحاجة ؟ لقد أصبحت معدتى لا تستطيع هضم أشعارهم ، وهذه الأموال التى تبعثر فى كل عام عليهم أولى بها أن تتدفق على القواد والجنود.

— يا مولاى إن المتنبى شاعر مر اللسان مر العود شائك الجانب ، فإذا لم تقبل عليه وتملأ فمه بعطاياك فربما خرج عن جادة الأدب ، وشعر هذا الملعون له أجنحة لا تمل الطيران .

— إنه عرّض بى وكاد يصرّح بهجائى فى بعض مدائحه لهذا

العربى المفتون الذى يدعو نفسه سيف الدولة ، فلن يطأ بساطى. ولن ينشد أمامى شعراً . إن له أن يقيم ببغداد كما يشاء ففى بغداد من هم شر منه من حثالات الأقطار ونفايات الأمم .

— إن الرجل يا مولاى ليس ممن يستهان بأمرهم ، وليس ممن توصد الأبواب فى وجوههم ،فقد بلغ منزلة من المجد الشعرى يجب أن نخضع لها راضين أو كارهين ، والذى أشير به ألا نبدأ الرجل بالعدوان ، وألا نلقى بأنفسنا عند أقدامه متزلفين متملقين كما فعل الغر سيف الدولة،وكما فعل المأفون الجاهل كافور ،فكان جزاؤهما منه الجفاء وشر الهجاء . والذى أنصح به أن ننتظر ونترقب ، فإذا جاء إلى القصر مستجدياً متواضعاً كما يجىء غيره من الشعراء والتمس الإذن بمديح مولانا فتحنا له الأبواب مرحبين ، وأجزلنا له الصلة مغدقين ، أما إذا لم يفعل شيئاً من ذلك فليس له عندنا إلا أن نترك لجواسيسنا مراقبته من بعيد ، وأن نجعل إقامته ببغداد جحيماً لا تطاق .

— أليس بين شعراء بغداد وأدبائها من يبلغ منزلة هذا المتنبى ، ومن يستطيع أن يحطم صلفه وكبرياءه ؟ فإن من العار أن يقال إن دار الخلافة أقفرت من الشعراء فلم يقف فيها شاعر فى وجه هذا المغامر الأفاق .

— إن شعراء بغداد يا مولانا كالكلاب المضراة ، وهم رهن إشارتى ، ولكنى لا أعطى هذه الإشارة إلا فى وقتها ، ويجب أن ننتظر كما قلت .

– فلننتظر إذاً ، وإنى سأترك لك الأمر كله . وانتهى الحديث فخاضا فى شئون أخرى .

وعلم على بن حمزة اللغوى بقدوم المتنبى فأسرع إلى الخان وطلب منه أن ينزل بداره فقبل بعد رجاء وإلحاح . وكانت دار ابن حمزة فى ربض حميد بالجانب الغربى . فأقام بها أبو الطيب مدة ثوائه ببغداد ، وكان يتردد عليه كل يوم شعراء المدينة وأدباؤها ورجال اللغة فيها ، واتصل به فى هذه الفترة تلميذه أبو الفتح عثمان بن جنى ، وكان شاباً لم يجاوز السادسة والعشرين يتوقد ذكاء ويلتهب غيرة على التحصيل والمدارسة ، واقتنص على بن حمزة الفرصة فروى عنه ديوانه ووقف منه على ما أشكل عليه من ألفاظه ومعانيه ، ومرت بالمتنبى أيام وهو على تلك الحال حتى فاجأه ابن حمزة يوماً سائلا :

– ألا تريد أن تزور الوزير المهلبى ؟

– إنى أنتظر أن يدعونى إليه .

– إن الوزراء والأمراء فى بغداد لا يدعون الشعراء ، وقد جرت عادة العظماء مثلك أنهم إذا نزلوا بلد ملك أو أمير أن يبدءوه بالزيارة .

– إننى لن أبذل نفسى رخيصة ، وكان يجب على المهلبى بعد أن علم بوصولى أن يلح فى أن أكون ضيفه ، وأن يفرد لى جناحاً بقصر الخلافة. فنظر إليه ابن حمزة فى عجب ودهشة وقال :

– إن وزيرنا المهلبى رجل شاعر أديب سخى الكف ، ولكنه

إلى كل ذلك مغال فى تقدير كرامته معتز بكبريائه ، يرى أن من دون مقامه أن يستجدى شاعراً أو يتملق أديباً ، على أنى أعتقد أنه ينتظر زيارتك فى قلق وشغف .

ــ فلينتظر إذاً طويلا فإنى لا أزور هذا الخليع الماجن .

ــ لا يا أبا الطيب ، إنك رجل جم الآمال بعيد المطامح ، وقد قضيت الحياة فى كد ووثوب فبلغت من بعد المنزلة مكاناً قصياً ، ولكنك لم تصل بعد إلى الغايات التى أقرؤها فى شعرك . لقد سقطت من سلم الطموح مرتين كنت فيهما موشكاً على القمة : مرة عندما غضبت على سيف الدولة ومرة عندما غضب عليك كافور ، فإيّاك وأن تسقط الثالثة ! إن لنا أملا كبيراً فى المهلبى وفى معز الدولة ، وإن رجلا مثلك لو ظفر بمودّتهما لظفر بكل شيء . فإذا كنت قد طمعت عند كافور فى ولاية ، فهنا مصدر الولايات ، وهنا النبع الفيّاض برفيع المناصب ، وهنا خلافة المسلمين التى جعلت كافوراً ملكاً ، وسيف الدولة أميراً .

ــ كنت أحب أن يبدأ مهلبيكم بدعوتى ، والذى أخشاه الآن ألا أقابل بما يليق بمثلى من الكرامة .

ــ هذا وهم يا سيدى . إن شهرتك غرست فى قلوب الناس منك رهبة لم يخل منها قلب أمير أو وزير . اذهب إليه يا أبا الطيب غداً .

ــ سأذهب .

وفى صباح اليوم الثانى ركب أبو الطيب فى عظمة تشبه

عظمة الملوك وخلفه العبيد والخدم بين فارس وراجل ، وقصد إلى قصر الخلافة فاستقبلته حاشية الوزير فى إكرام وحفاوة ، وأسرع المهلبي فأذن له فدخل عليه المتنبي فى تؤدة وجلالة سمت مرتفع الصدر شامخ الأنف ، كأنه أسد ابن عمار الذى يقول فيه :

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آسٍ يجس عليلا

فحيا الوزير ورد الوزير تحيته فى شيء من الفتور بعد ما رأى من تشامخه وتعاظمه ، وتقدّم المتنبي فجلس إلى جنبه حتى التصقت ركبته بركبته ، وكان بالمجلس أبو الفرج الأصفهانى وابن البقال الشاعر ، واتجه المهلبي إلى أبي الطيب وقال فى تهكم لا يكاد يلمح :

— لقد زرت بغداد منذ شهر يا أبا الطيب ولم تزرنا ، أتعد هذا تجنباً أم تجنياً ؟

— الأعذار كثيرة يا سيدى .

— الأعذار تقول يا أبا الطيب إنك بخير وعافية ، وإنك تقضى وقتاً طويلا كل يوم فى دراسة شعرك مع ابن حمزة وابن جنى . كيف تركت الأسود بمصر ؟

— تركته وهو لا يزال أسود .

— ألا تزال تهدّد الناس بشعرك يا أبا الطيب ؟

— إن شعرى مرآة أخلاق الناس ، وليس على المرآة من ذنب إذا كشفت وجهاً دميماً .

— أرجو أن تحسن وجوهنا فى مرآة شعرك ، فابتسم المتنبي

ابتسامة ساخرة ولم تعجبه ملاقاة المهلبي له وقال :

وأحسن وجه في الورى وجه محسن   وأيمن كف فيهم كف منعم

— نترك الإحسان والإنعام الآن يا أبا الطيب حتى نسمع .

والتفت إلى أبي الفرج وأخذ يطارحه الشعر ونوادر الأدب .

والمتنبي يشترك في الحديث متعاظماً ، يخطئ هذا ويجبه ذاك ، حتى انفض المجلس فخرج مغيظاً ساخطاً ، لأن المهلبي لم يحسن لقاءه كما يحب ، ولم يستجد مدحه كما كان يؤمل ، واشتد غضب المهلبي على المتنبي لأنه لم يمدحه ، ولأنه أظهر من الصلف والتيه ما لا يجمل بمجالس الوزراء . فصمم العزم على الكيد له وتلقينه درساً لا ينساه في وجوب التطامن للوزراء والخضوع للعظماء .

وبلغ الشاعر داره فلقيه ابن حمزة وعاجله سائلا :

— كيف الحال يا أبا الطيب ؟

— شر حال ! إن وزيركم يحسبني من شعرائه المهازيل الذين يقعون حول مائدته لالتقاط فتاتها . ثم قص عليه ما دار في المجلس ، فانقبض وجه ابن حمزة وقال في تحسر :

— لقد أضعت الفرصة يا أبا الطيب ، وسلطت عليك أكبر مدرب للكلاب .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أنه سيرسل عليك عصابته ، وستسمع غداً فيك شعراً هو قيء أمعاء البديع ، وأشلاء جيفة البيان .

— لقد قلت فى أمثالهم :

وأتعب من ناداك من لا تجيبه   وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبى فيهم غير أننى   بغيض إلى الجاهل المتعاقل

— لا يا أبا الطيب ، إن هؤلاء ليسوا ممن يسهل اتقاء شرهم ، أرأيت الأوحال التى كلما حاولت التخلص منها زدت فيها ارتطاماً ؟ إن لهم فى بغداد حكماً على الحكام ، وتسوداً على ذوى النفوذ ، إنهم يهد دون كل عظيم فى عرضه وشرفه ومزال ماضيه ، فيقبل عليهم خاضعاً مستغيثاً جاثياً على ركبتيه ، باذلاً كل ما يضربونه عليه من مال . إن قطاع الطريق ولصوص الليل أشرف منهم نفساً وأكرم خلقاً ، لأنهم يعفون عن استلاب النساء وقتل الأطفال ، أما هؤلاء فلا تسلم منهم حرمة ، ولا يتنزهون عن ملامة . إنهم يرسلون البيت من الشعر مسموماً كما يرسل القرمطى سهمه لا يبالى إلى أى قلب تفذ . وهؤلاء جميعاً فى قبضة المهلبى يوسوس لهم بالدنانير فيقبلون ، ثم يوجههم إلى الصيد فيتواثبون ، وهو يطل عليهم من بعيد جذلان مسروراً . وكلما زاد أحدهم فى النهش زادت المكافأة وكلما ولغ أحدهم فى الدماء عظم الجزاء . إن هؤلاء الشعراء يحكموننا الآن يا أبا الطيب ، فهم يوجبون علينا طاعتهم ، ويفرضون علينا من الضرائب والإتاوات ما يشاءون . والويل ثم الويل لمن أظهر العصيان أو حدثته نفسه باستنكار شىء أو التأفف من شىء ! لا يا أبا الطيب ، اشتر عرضك من هؤلاء ، واذهب بعد أيام إلى المهلبى وفى كمك قصيدة

فى مديحه . وأنتم أيها الشعراء أجرأ خلق الله على الكذب ، وأقدرهم على تصوير ممدوح خيالى تعطونه اسم من ترجون صلته . والذى مدح كافوراً يا أبا محمد لا يعجز عن مدح الجاحظ بالجمال ، وهبنقة بالذكاء ، والحجّاج بالرفق والحنان .

ــ لن امدح المغرور المستهتر ، ولن أذهب إليه . ولن أبالى بكلابه المساعير .

ــ ذلك لك يا أبا الطيب ، ولكنى أحذّرك من ابن الحجاج وابن سكرة وابن لنكك والحاتمى ، احذر هؤلاء يا أبا الطيب وتجنب الاشتباك معهم ، وإذا دفعت إلى لقائهم فجاملهم وتلطف .

ــ لوكانت المجاملة من خلقى يا ابن حمزة لكنت فى حال غير هذه الحال .

وبعد مرور يوم أو يومين على هذا الحديث اجتمع بحانة بالكرخ تعرف بحانة أبى نواس ثلاثة رجال جلسوا فى حجرة بعيده عن الطراق ، وطلب أحدهم من فتاة الحان خمراً رومية معتقة فأحضرتها ، وأخذوا يتساقون ويتهامسون ثم قال أحدهم :

ــ لقد جعل لكل شاعر منا خمسمائة دينار .

ــ هذا ليس بالكثير يا ابن الحجاج .

ــ ما أطمعك يا ابن سكرة . أتستقل خمسمائة دينار فى عشرين بيتاً أو نحوها من أقذر الشعر وأفحشه تقذف بها فى وجه هذا المتنبى ، ثم تنال من بعدها شهرة الأبد ؟ ما رأيك يا ابن لنكك ؟

ــ أرى أن العرض حسن ، ولقد أعددت بالأمس أبياتاً وسأزيد عليها لأن الوزير وعدنى بزيادة العطاء إذا فحش الهجاء وتعددت فنونه .

ــ هذا حسن ، ولكن أترى أن نأخذ فى هجو الرجل دون أن نستدرجه بشىء من الملاحاة والمهارشة ؟

ــ لا . يجب أن نزوره غداً، وقد علمت أنه غاية فى الكبر والأنفة والزهو بنفسه ، ومثل هذا يسهل اصطياده واجتذابه إلى المعركة.

ــ عظيم . غداً نلتقى فى الصباح بدارى ، ومنها نذهب إلى دار ابن حمزة للتشرف بمقابلة هذا الزق المنتفخ . وانتهى ما فى الإناء من شراب ، وانتهى ما فى عقولهم من كيد وتدبير ، فخرجوا من الحانة يترنحون ويصخبون . وجاء الغد وأسرعوا إلى دار ابن حمزة فاستقبلهم ببشر مصنوع وترحيب متكلَّف ، ثم دلف إلى حجرة المتنبى فأخبره بزوّاره وكرر تحذيره والنصح له ، ودخل الشعراء على أبى الطيب وكان جالساً فلم يتحرك من مكانه ، وأخذ ينظر فى وجوههم كمن ينظر إلى حشرات غريبة الخلقة دنيئة الفصيلة ليس له بمثلها عهد ، وكرّر الشعراء التحية فبدرت منه تحية فاترة أردفها فى عجلة بأمرهم بالجلوس ، فجلس القوم والغيظ يحتدم فى وجوههم ، ثم أخذت ابن الحجاج قهقهة طويلة تصنع أنه لا يستطيع لها كتماً ، فنظر إليه المتنبى ازدراء وقال :

ــ مم تضحك يا رجل ؟

ــ أضحك يا سيدى لأنى سخرت بالأمس من رجل زعم

أنك كنت تطمع فى ملك مصر ، وطالما لاحيته وطالما حاججته ولكن ظهر لى أنى كنت مخطئاً .

ـ كيف ؟

ـ لأن هذه الجلسة وهذا الصلف وهذه النظرات التعبة الجافية لا تصدر إلا عن ملك .

ـ مالك ولكل هذا يا رجل ؟ أجئت لتزورنى أم لتظهر سخفك ؟ فأسرع ابن سكرة وقال :

ـ إن هذه المقابلة التى صدمتنا بها لا تقابل إلا بالسخف والسخرية ، أفق أيها الشيخ من سباتك فإننا شعراء بغداد . سل كل إنسان تلاقيه ينبئك من هم شعراء بغداد . إن فى جراب أشعارنا علاجاً ناجعاً لأمثالك المغرورين . إننا خلقنا من الشعر ميسما يشوّه الوجوه الصلفة ، ولجاماً يعقد الألسنة البذيئة ، وقاراً يلطّخ العرض فلاتغسله أمواه السماء ، فقال المتنبى باسمًا وكأنه لم يسمع إلا طنين ذباب :

ـ لم تزد على أن جعلت الشعراء عصابة من قطاع الطريق ، فسحقاً لك من شاعر ! وما أتعس الشعر بمثلك! ثم التفت إلى ابن لنكك وقال : وأنت يا شاعر آخر الزمان ، هل فى جراب شعرك شيء غير الذى فى جراب صاحبك؟فاتجه إليه متحدياً وقال :

ـ أتريد ما فى جرابى ؟ إذاً فاسمع :

ما أوقح المتنبى فيما حكى وادعاه .
أبيح مالا عظيماً لما أباح قفاه

يا سائلى عن غناه   من ذاك كان غناه
إن كان ذاك نبياً   فالجا ثليق إلــه

فقهقه المتنبي وضرب الأرض برجليه ، وقال :

هدأ الله أنفسكم كما هدأتم نفسي ، وأسعد بالكم كما أسعدتم بالى ، أهذا كل شعركم ؟ فى الحق لقد رعبتمونى أول الأمر حتى ظننت أن وراء تهديدكم ناراً وصواعق من الشعر الذى أعرفه ، والذى أدخره لأعدائى من الملوك ، أما الآن وقد سمعت هذا الشعر الذى عمشت مقلتاه ، واختلط فيه قفاه بغناه ، فإنى أستطيع أن أمد رجلى جذلان مرحاً ، وأن أعتقد أننى سأقضى فى بغداد وقتاً سعيداً أترقّب فيه كل يوم ما يضحكنى ويذهب بهمومى . رحم الله بغداد! ورحم الله شعراء بغداد ! هنا كان النواسى ، وهنا كان مسلم ، وهنا كان ابن الرومى ، وأنتم اليوم تلبسون ثيابهم؟ البسوها ما شئتم فربّ ثوب يتبرأ من كتفى لابسه ! أبقى فى جرابكم شيء من السباب ؟ إن كان فهاتوه فإنى مصغ لكم مشغوف بشعركم ، وإن لم يكن فاذهبوا لإعداد غيره .

لا تجسر الفصحاء تنشدها هنا   بيتاً ولكنى الهزبر الباسلُ
ما نال أهل الجاهلية كلهم   شعرى ،ولا سمعت بسحرى بابل
وإذا أتتك مذمّتى من ناقص   فهى الشهادة لى بأنى كامل

ثم وقف فانصرف القوم صاخبين مهددين . وبقى المتنبى باسم الوجه عابس القلب ، إنه استطاع حقاً أن يسخر منهم وأن يستخف بتهديدهم ، ولكنه إلى ذلك علم علم اليقين أن

أمله فى الملهى ذهب إلى غير رجعة ، وأن بقاءه ببغداد أصبح محفوفاً بالمكاره . واتجه إليه ابن حمزة وقال :

ـ لقد كنت داهية واسع الحيلة فى مقابلة هؤلاء الأنذال ، ولكنى لا أزال أحذرك منهم ، فإن الثعبان لا يموت إذا قطع ذنبه ، فزفر المتنبى وقال :

ـ لا يزعجنى شىء يا ابن حمزة إلا أن أمنى فى نهاية أيامى بمثل هؤلاء الزعانف .

وفى صباح اليوم التالى أطلق ابن الحجاج من داره كلبة هزيلة بعد أن علق بعنقها ورقة شدها بخيط ، ووكل بها ثلاثة من عبيده ، وأمرهم أن يمروا بها فى جميع أحياء بغداد وأرباعها ، وأن يطيلوا الوقوف أمام معاهد العلم ومظان الطلاب ، وأن يصونوا الورقة ويحافظوا عليها ، حتى إذا جاء المساء أطلقوا الكلبة فى حديقة دار ابن حمزة .

وسارت الكلبة خارجة من سوق داخلة فى غيرها ، واجتمع خلفها خلق عظيم ، ومرت بمسجد ابن رغبان حيث يزدحم طلاب العلم ، فاستوقفها أحدهم وأخذ يقرأ ما فى الورقة بصوت جهير ، فكان فيها .

له الويل ابن أمى كيف مالت	به الدنيا إلى خلق اللئام ؟
رمى نسب الكلاب وكان زينا	بعار من مثالبه وذام
يبيع الشعر « أحمد » لا يبالى	وأين لمثله خوف الملام ؟
غدا عبداً لكافور بمصر	وذل لآل تغلب بالشآم
سأنشده من الأشعار بيتاً	له ، إن كان لا يرضى كلامى

(وآنف من أخي لأبي وأمي   إذا ما لم أجده من الكرام)

وما كاد يتم القراءة حتى قهقه الطلاب وصفقوا وساروا خلف الكلبة يدعون كل عالم وكل أديب وكل ملم بالقراءة إلى قراءة الأبيات ، واستمرت الحال هكذا طيلة النهار ، وصار المتنبي حديث المدينة ، وأصبح اسمه متندراً لكل مازح ، ومضغة في فم كل بذيء ، حتى إذا مالت الشمس للغروب قاد العبيد الكلبة إلى دار ابن حمزة فلمحها أبو الطيب وكان في حديقة الدار ، فأمر مفلحاً أن يحضرها بما في عنقها ، وحين قرأ الأبيات اكفهر وجهه ، وعلم أنه أمام خصوم عاهرين لا تعجزهم دنيئة ، ولا تكفهم ذرة من رجولة ، فدعا ابن حمزة وألقى إليه الورقة ، فلما قرأها قال :

ــ قاتلهم الله ، ما ألد خصامهم . وما أسوأ كيدهم . هذه الكلبة مرت طول النهار بكل ناحية من نواحي المدينة ، وهذه الأبيات قرأها آلاف من الناس بين سخرية وقحة ، وسباب مقذع . تعساً لهم . والله ما كنت أظن أنهم يبلغون هذا . أتحب أن أرسل إلى ابن الحجاج يا أبا الطيب ؟

ــ لا يا ابن حمزة ، إياك وأن تظهر المبالاة بهم ، فإن الكلب الجبان يشجع إذا أظهرت الخوف منه .

واجتمع الشعراء الثلاثة بالوزير المهلبي ، وكان الحديث يدور حول حادث الكلبة وما أثار في المدينة من ضحك وسخرية وفكاهة ، وشكرهم الوزير على ما بذلوا من جهد ، ووعدهم بمضاعفة الثواب إذا ثابروا .

ومرت أيام وأيام والمتنبي متحصّن بداره يكاد يخشى الخروج ومقابلة الناس ، واتفق أن دعاه أبو الفتح بن جني للغداء بداره فأجاب الدعوة ، وركب في حشد من عبيده يقصد دار صاحبه ، وما كاد يبلغ صينية الكرخ حتى اخترق ابن الحجاج صفوف الناس وعلق بلجام جواده ، فتزاحم الناس حولهما من كل جانب ، وأخذ ابن الحجاج ينشد بصوت عال قصيدة بذيئة في هجاء أبي الطيب أولها :

يا شيخ أهل العلم فينا ومن   يلزم أهــل العلم توقيره

وكان المتنبي مطرقاً في خشوع وجلال في أثناء الإنشاد ، لم تظهر على وجهه لمحة استنكار ، ولم تبد منه بادرة تدل على أن شعراً ينشد أو هجاء يقال ، وحينما أتم ابن الحجاج إنشاده التفت إليه أبو الطيب وقال : لقد أجهدت نفسك يا صاحبي بالوقوف في هذه الشمس المحرقة . ثم أرخى عنان فرسه وأطلقه للمسير .

وكلما طالت إقامة المتنبي ببغداد زادت الحملة قوة وتأجج لهيبها . وكانت تجرى كل هذه الأحداث وهو ساكت لا ينبس ، رزين لا يطيش ، ولكن نفسه كانت تتقد غيظاً وقلبه يتفتت كمداً ، جلس مرة مطرقاً حزيناً وقد مرّت بذهنه هذه الصور المخزية ، وهذه الحرب الكريهة التي ألقي فيها سلاحة ليصون كرامته من أن تنزل في هذا الميدان ، ثم أخذ يحادث نفسه ويقول : إلى متى هذه المطاولة؟ وإلى متى هذا الحلم الذي قد يعده الناس جبناً ؟ أين شعرك يا أبا الطيب ؟ إن بيتاً واحداً منك كفيل

بأن يلقف ما صنعوا وأن يلتهم حبالهم وعصيّهم . إنهم ذباب قذر يكفي أن تمر بنعلك عليهم فتمحوهم جميعاً . ولكنك إذا هجوتهم كنت لهم قريناً ، والموت خير ألف مرة من أن تكون قريناً لهؤلاء . اهج المهلبي إذاً ، اهجه أبا الطيب ، اهج معز الدولة ، نعم اهج هذين أو واحداً منهما ، فإن مثلك لا يهجو إلا الملوك والوزراء ، وأقسم بالشعر ومناته وعزاه إن قصيدة واحدة منك في هجائهما لن تكون ألفاظاً ، ولن تكون حروفاً ، ولكنها تكون صاعقة تحطّم العروش وتبعثر التيجان . ولكن كيف تهجوهما ؟ إنك إن فعلت فلن يكون لك مسكن إلا في السماء ، نعم إن هجاءهما لا يبقي لك في الأرض مكاناً ، لقد غاضبت مصر وجفوت الشام ، فإذا فررت من العراق فأين تذهب ؟ قد يجول بنفسك أن تذهب إلى بلاد فارس ، وأظن أن ملكها عضد الدولة لا يلاقي من هجا عمه معز الدولة بالقبل والعناق . لا يا أبا الطيب ، اصبر ما استطعت الصبر ، واكظم غيظك المحموم ما قدرت ، فإذا لم تقدر فارحل إلى الكوفة وادفن نفسك بين الكتب فقد أصبحت ميت الأحياء . وجاء ابن حمزة ذات مساء فدخل على المتنبي مهموماً يمسح عرقاً تصبب من وجهه وقال :

ــ لقد قابلت الساعة أبا علي الحاتمي فأخبرني بأنه سيزورك غداً .

ــ من أبو علي الحاتمي ؟

ــ إنه من أعلام بغداد وكبار أدبائها ، وهو أستاذ كثير من شعرائها وكتّابها .

ــ وماذا يريد منى ؟

ــ يريد أن يسعد بلقائك ، وأن يجاذبك الحديث فى الشعر والأدب ، اسمع يا أبا الطيب . إن الحاتمى رجل مهيب رفيع المكانة فى بغداد ، وليس هو ممن يقابل بالإعراض والسخرية كما قابلت ابن الحجاج وصاحبيه ، فرجائى إليك أن تبسط له من نفسك وحديثك ، وأن تقابله بما يليق بمنزلته وكرامته ، فقد كفانا ما لقينا من الفضائح فى دروب بغداد وأزقتها ، وكفانا أننا أصبحنا اليوم حديثاً لأدعياء الأدب وسخفاء المجّان .

ــ اجعل كل هذا دبر أذنك يا ابن حمزة .

ــ أجعله دبر أذنى إن استطعت ، ولكنى لا أضيف إليه كارثة جديدة بإهانة أعظم أدباء بغداد .

ــ لا . لن نهينه ما أحسن الكلام والتزم الأدب .

وجاء الحاتمى فى الغد وقد اعتزم أن يسقط المتنبى من سماء كبريائه ، وأن ينكس رأسه فى التراب ، وأن يظهر جهله بالشعر والأدب واللغة ، ثم ينشر فى طول بغداد وعرضها أنه حطم الصنم ، وخرق الطبل الأجوف ، وأن هذا المتنبى الذى يظن أن شمس العراق لم تطلع على مثله ليس إلا دعياً مغروراً أفّاقاً .

جاء الحاتمى وقد ركب بغلة فارهة وحوله عدة من الغلمان بين مماليك وأحرار ، فلما بلغ الدار ولمحه أبو الطيب غادر مجلسه ودخل حجرة أخرى ، واستأذن الحاتمى وأذن له فاستقبله ابن حمزة أحسن استقبال وحياه أجمل تحية ، وكان بالمجلس

أبو الفتح بن جنى والقاضى أبو الحسن المحاملى ، ثم دخل أبو الطيب فسلم عليه الحاتمى مبتسما وقال :

ـ لقد لمحتك ياأبا الطيب فى هذه الحجرة وأنا بباب الدار ، فلما علمت بقدومى تركتها ، أفعلت ذلك لكى لا تنهض إلى بالسلام؟ فسكت أبو الطيب ولم يجب ، ثم جلس على كرسيه معرضاً ينظر إلى السقف والحيطان ، ولما فرغ من هذا اتجه إلى ابن جنى وقال :

ـ إن البيت هو :

حالفته صدورها والعــوالى لتخوضن دونه الأهــوالا

والضاد فى « تخوضن » مضمومة لأن الفعل مسند إلى واو المذكرين مؤكد بالنون . فقال ابن جنى : كنت أقرؤه « لتخوضن » بفتح الضاد على أن الفعل مسند إلى ضمير مؤنث يعود على الصدور والعوالى ، وكيف يا سيدى يسند الفعل إلى واو المذكرين المحذوفة فى « تخوضن » وهى خاصة بالعقلاء ؟

ـ حينما قلنا إن صدور الخيل وعوالى الرماح حالفت الممدوح أجريناها مجرى من يعقل من الذكور .

كان يدور هذا الحديث والحاتمى متفزز متوثب ، ينفخ من الغضب ، فالتفت إليه المتنبى وقال :

ـ كيف حالك ؟ فأجاب الحاتمى وهو يتميز من الغيظ :

ـ أنا بخير لولا ما جنيته على نفسى من قصدك ، وجشمت دابتى من السعى إلى مثلك ، أجبنى بالله أيها الرجل ! فيم تيهك وخيلاؤك ؟ وعجبك وكبرياؤك ؟ وهل عدوت أن تكون شاعراً

متكسباً ؟ إذا قصدك شريف فى نسبه تجاهلت نسبه ، أو عظيم فى أدبه صغّرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه خفّضت منزلته ، فهل المجد تراث لك دون غيرك ؟

فأطرق المتنبي وعلم أن الرجل ليس بهين ، وأنه يمكنه أن يلين معه بعض اللين ، فقال : خفض عليك واكفف من غربك واستأن فان الأناة من شيم مثلك . فهدأ الحاتمى قليلا ثم قال :

ــ إنى جئت أسألك عن أشياء وأراجعك فى أشياء ، حدثنى عن قولك :

إذا كان بعض الناس سيفاً لدولة ... ففى الناس بوقات لها وطبول

أهكذا تمدح الملوك؟ فالتفت إليه المتنبي فى زهو وجبرية وقال :

ــ إن تلاميذى يجيبونك عن كل ما تسأل . فقال ابن جنى :

لا أرى فى البيت إلا روعة وإبداعاً ، فإن للجيش عددا هى السيوف والبوقات والطبول ، وإن السيف خير هذه العدد وهو اسم الممدوح « سيف الدولة » ، أما البوقات والطبول فلها ضجيج وجلبة ، ولكنها لا تعمل شيئاً ، لذلك شبه الشاعر بها غير الممدوح من الملوك .

ــ هل معز الدولة بوق وطبل ؟

ــ لا أدرى ، وإنما أنا مفسر شعر ، ثم غمز بعينه الباقية وقال : هل قرأت يا سيدى ما بعد هذا البيت وهو مما لم يسبقه إليه شاعر ؟

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله ... إذ القول قبل القائلين مقول

وما لكلام الناس فيما يريبنى ... أصول ، ولا للقائليه أصول

أعادى على ما يوجب الحب للفتى وأهدأ والأفكار فى تجول

فقال الحاتمى : وكيف لم يخجل المتنبى من سيف الدولة حين قال فى رثاء أمه ؟

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

فقال ابن جنى : وماذا فى هذا يا سيدى ؟ أتستنكر أن توصف أم ملك بالجمال ؟ أتظنه جمالا كجمال الراقصات والقيان ؟ إنه يا سيدى جمال النفس الرضية والخلق النبيل . اقرأ يا سيدى من هذه القصيدة وسبّح بحمد واهب المواهب :

مشى الأمراء حوليها حفاة كأن المرو من زف الرئال

وأبرزت الخدور مخبآت يضعن النقس أمكنة الغوالى

أتتهن المصيبة غافلات فدمع الحزن فى دمع الدلال

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

فقال الحاتمى : ويقول المتنبى :

وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

أما كان فى أفانين الهجاء مندوحة عن هذا الكلام؟ فأسرع إليه ابن جنى قائلا : رحماك يا مولاى ، فقد جئت بأبلغ بيت تنفس عنه الهجاء فى الشعر العربى! ما أغرب الصورة وما أمهر صناعتها ! إنها صورة لو عثر بمثلها حماد عجرد لأغنته عن كل هجائه فى بشار . وفى هذه القصيدة يا سيدى :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـــة فلعله لا يظلم
ومن البلية عذل من لا يرعوى عن جهله وخطاب من لا يفهم

واستمر الجدال على هذا النحو ساعات ، وكان المتنبى يشترك فيه أحياناً فى رفق ولين ، وشعر الحاتمى أنه إزاء شاعر لا يدرك ، [illegible] من عطف المتنبي ومجاملته فى أثناء الحديث ما خفف من حـ[illegible]ته وهدأ من ثائرته ، ولم يجد فى نفسه حرجاً من أن يجامل المتنبي هنا ثم يدّعي للوزير المهلبي أنه انتصر عليه وغلبه ، ونهض فنهض المتنبى مشيعاً له إلى باب الدار حتى ركب .

وزاد يقين أبى الطيب بأن السحاب يتراكم ، وأن الصاعقة توشك أن تنقضّ ، فصبر على دخن ، وطوى نفسه على غيظ دفين .

وكان كافور قد أقام أبا عوف الكنانى بدار الخلافة منذ سنين ليننقل إليه أخبارها وليكون سفيره لدى معز الدولة والخليفة ، وقد أنبأه أبو عوف بقدوم المتنبي بغداد ، وجاءه الجواب بأن يحتال لقتله غيلة ، فإذا لم يستطع ألزمه طائعاً أو مكرهاً أن يمدح كافوراً بقصيدة تمحو كل ما جره عليه هجاؤه من العار . وبذل أبو عوف كل ما فى مكنته من جهود لإطاعة أمر كافور فلم يوفّق . وفى ليلة دخل عليه منصور الحلى وكان شريكاً له فى المؤامرة فقال :

— لقد اهتديت إلى أحكم الطرق وأسلمها لإنفاذ المؤامرة .

فاتجه إليه الكنانى فى تشوّف قائلا :

— كيف ؟

ـ كنت اليوم أزور أبا إسحاق الصابى ودار الحديث حول المتنبي ، فأثنى عليه كثيراً وأخبرنى أنه يود أن يدعوه إلى داره ليؤدى له ما يستحق من كرامة ، وليعتذر له عما ناله من سلاطة شعراء بغداد وشنيع هجائهم ، فقلت له : إننى أؤدى عنك الرسالة يا سيدى ، فاكتب إليه رقعة لدعوته غداً وأنا كفيل بحملها إليه . فكتب هذه الرسالة ، وأخرج من كمة ورقة بخط الصابئ فقال الكنانى :

ـ وماذا نصنع بهذه الرسالة ؟

ـ تسلمها إلى عبيدك غداً فى الصباح ، وتأمرهم أن يذهبوا بها إلى المتنبي بدار ابن حمزة زاعمين أنهم عبيد أبى إسحاق ، وأن سيدهم أمرهم أن يصحبوا المتنبي إلى داره .

ـ ثم ؟

ـ ثم يذهبون به إلى قصرك الخالى بالزبيدية ، وهو قصر منعزل بعيد عن الدور ، فإذا بلغوا به القصر وضعوه فى إحدى غرفه وقيدوه ثم هددوه بأنه إن لم ينظم قصيدة فى مدح كافور قتل شر قتلة .

وجاء الصباح وتمت المؤامرة ، ورأى المتنبي نفسه مقيد الرجلين وحوله زنوج تلتهب عيونهم بالغضب ، وقد وضع كبيرهم على خوان ورقاً وأقلاماً وهو يقول :

هنا تكتب قصيدة فى مدح مولانا كافور ، وإلا ذهبت روحك إلى الشيطان ! وتكلف المتنبي الرضا وأظهر الرغبة ، فتركوه وذهبوا إلى سرداب القصر فعثروا به على دن ممتلئ بخمر

من خمر البلح تغلى وتشتد وتقذف بالزبد ، فتصايحوا تصايح الزنوج ، وقال كبيرهم : لنشرب حتى يتم شاعرنا القصيدة ، فتهافتوا على الشراب وأخذوا يكرعون ويغنون حتى صدعت الخمر رءوسهم .

وجلس المتنبي فى غرفته يائساً ساخطاً ، ثم ألقى نظرة على النافذة فلمح من بعيد فتى ينصب فخه للطيور ، فأشار إليه وكرّر الإشارة فلم يلتفت ، فبحث فى الغرفة عن حصاة فقذفه بها فرفع الفتى رأسه ورأى أبا الطيب وهو يشير إليه إشارات تدل على الاستغاثة وطلب النجدة ، فأسرع إليه وصعد فى السلم حتى وصل إلى غرفته ، فأخبره المتنبي بالقصة وطلب إليه أن يفك قيده فقطعه بسكين كانت فى حزامه ثم قال :

— هلم يا شيخ فإنك تستطيع أن تخرج الآن آمناً فلست أسمع بالدار إلا غناء سكارى .

— إذًا لقد سكر المناكيد !

— يظهر ذلك .

— دعنى الآن أكتب شيئاً ثم نخرج معاً وأخذ الورقة وكتب فيها :

ولى همة من رأى همتها النوى	فتركبنى من عزمها المركب الوعرا
تروق بنى الدنيا عجائبها ولى	فؤاد ببيض الهند لا بيضها مغرى
أخو همم رحالة لا تزال فى	نوى تقطع البيداء أو أقطع العمرا
ومن كان عزمى بين جنبيه حثه	وخيل طول الأرض فى عينه شبرا
صحبت ملوك الأرض مغتبطا بهم	وفارقتهم ملآن من حنق صدرا

ولله آيات وليست كهذه   فانك يا كافور آيته الكبرى
واكفر ياكافور حين تلوح لى   ففارقت مذفارقتك الشرك والكفرا

فلما أتم الكتابة تسلل مع الفتى من الدار ، ورأى جواده تحت شجرة فامتطاه وطار . وصحا العبيد وذهبوا إلى الغرفة فلم يجدوا للمتنبي أثراً ، ورأوا الورقة فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فى صخب وشكاس ، ثم حملوا الورقة إلى الكنانى فقرأها وضرب بكف على كف وصاح فى العبيد :

لقد أفسدتم كل شيء يا عبيد السوء ، اكتموا كل ما جرى ، وأقنعوا أنفسكم أنه لم يحصل شيء ، لو وصل إلى سيدى كافور علم هذه الحادثة لقتلنا جميعاً . وإنى أيضاً سأكتم خبر هذه الورقة . ها هى ذى أنظروا ! ثم مزقها قطعة قطعة ونثرها فى الهواء .

وبلغ المتنبي دار ابن حمزة مجهداً مكدوداً مضطرب العصب وهو يصيح : يا محسد ، يا مفلح ، فلما أقبلا عليه قال : لن نقيم بهذه المدينة إلا الليلة ، أسمعتما ؟ أعدا الرواحل والجياد ، سنرحل غداً فى الصباح . ثم أخذ يغمغم :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم   بين طعن القنا وخفق البنود
فرءوس الرماح أذهب للغيـ   ـظ وأشفى لغل صدر الحقود
لا كما قد حييت غير حميد   وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز فى لظى ودع الذ   ل ولو كان فى جنان الخلود

رعونة

غادر المتنبي بغداد والغيظ يمزّق فؤاده ، والغل تغلى فى نفسه مراجله ، لقد كان يظن أن الأدباء والشعراء سيتنافسون فى إجلاله وتكرمته ، ويتسابقون إلى التقاط كل كلمة تخرج من فيه كأنما هى قرآن مبين ، ويقتتلون على نيل الحظوة عنده والتقرب إليه ، ولقد كان يتخيّل أن الخليفة سيسرع إلى ملاقاته مرحباً محيياً ، وأن معز الدولة سيسعى إليه على الأقدام راجياً متملقاً ، وأن الخلافة ستخلى له قصراً على دجلة من قصور العباسيين يطل منه على رعية مخلصة لأدبه تردد حمده فى الغدو والآصال ، ولقد كان يتوهم أنه وقد أصبح العلم الفرد فى دولة البيان ستجد فيه دار الخلافة علماً خفّاقاً يجمع حولها أقطار العربية ، وداعية منقطع النظير يعيد الأوطان المتمردة إلى أحضان بغداد ، كان يحلم بكل هذا وهو رجل بعيد الأحلام ، وكان يقدر كل هذا وهو رجل ما أصاب مرة فى تقدير ، وطالما منى نفسه بعد أن خاب فى أن ينال ضيعة أو يحكم ولاية أنه بعد أن يمد جناحي نفوذه على عرش الخلافة ، سيصبح الآمر فى الولاة الناهى فى الملوك ، فهل حصل من هذه الأوهام على شىء ؟ لم يسمع الخليفة السجين أن شخصاً يدعى بالمتنبي زار بغداد ، ولم يقبل معز الدولة أن شاعراً مستجدياً تيّاهاً يطأ بساطه ، وتكبر عليه المهلبي وعزفت نفسه عن أن يطلب منه شعراً ، ثم أغرى به شعراءه فمزقوا عرضه واعتقلوه فى

داره فلم يكن يخرج منها إلا خائفاً يترقّب . هذا ما لقيه فى دار الخلافة ، لم تر لمواهبه شبحاً ، ولم تلمح لنبوغه أثراً، ولم تجد فيه إلا شاعراً طليح أسفار كَلّت يداه من طرق الأبواب . جالت هذه الأفكار بنفس المتنبي وهو يقطع الطريق عدواً بين بغداد والكوفة عائداً إلى موطنه سيفاً محطماً ، وأملا حائراً ، وحطاماً بشرياً ، فزفر فى حزن وأسى وقال :

وقت يضيع وعمر ليت مدته فى غير أمته من سالف الأمم!
أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

وبعد أيام بلغ الكوفة فألقى بها عصا التسيار ، وعزم على أن يعيش بها كما يعيش سُراة المدينة ، وخلع ثياب الشاعر ولبس عدّة الفارس وسلاحه ، وعاد إلى قضاء وقته بين الصيد ومجالسه الأدباء والأشراف ، وحاول أن ينسى طموحه ، وأن يسخر من آماله ، وأن يرضى من الغنيمة بالإياب ، ويقنع بعد طول الجهاد بالطعام والشراب . وبينما كان يوماً عائداً إلى داره إذ رأى ابنه محسدا يسرع إليه ويهمس :

ــ سيدى سعد الدولة هنا .

ــ سعد الدولة ؟ ابن سيف الدولة ؟

ــ نعم يا أبى ، لقد حضر منذ ساعة . فأسرع المتنبى إلى لقائه ، وما كاد يراه حتى انكبّ عليه يعانقه ويقبله ويرحب به . وكان أبو المعالى سعد الدولة فى نحو الثالثة عشرة وسيما قسيما تظهر عليه مخايل البطولة ، وتنطق فى وجهه ملامح العروبة ، فاتجه

إليه أبو الطيب وقال :

ـ كيف حال مولاى سيف الدولة ؟

ـ لقد تركت أبى مريضاً ، ولكن المرض لم يمنعه من الخروج إلى لقاء الروم الذين أغاروا على طرسوس . إنهم لا يتركوننا لحظة للراحة وتجفيف العرق يا أبا الطيب ! ولقد كاد أبى يضيق بهم ذرعاً . ثم أخرج من كمة رسالة وقال : هذه رسالة أبى إليك . فقرأ المتنبي فإذا فيها : من سيف الدولة أبى الحسن بن حمدان إلى أبى الطيب أحمد ابن الحسين .

أما بعد فإنى أحمد الله إليك وأطلب لك العافية والسلامة. علمت بتركك الأسود ، وشكرت الله على نجاتك من هذا الطاغية . وإنى أبعث إليك بابنى وهو أغلى ما فى الحياة عندى ، لأرجوك فى العودة إلى حلب ، لقد تغيّرت بعدك الأحوال يا أبا الطيب ، وقويت شوكة الروم وطمى طغيانهم ، وتخاذل الناس حولى وسئموا القتال. والإسلام والعروبة فى حلب أحوج ما يكونان إلى صوتك الرنّان ، وشعرك الفيّاض بالقوة والحماسة ليلهب العزائم ويوقظ الهمم . لقد كان وجودك إلى جانبى بحلب طالع يمن علىّ وعلى المجاهدين فى الإسلام ، ولقد كانت أيامك أيام انتصار وفتوح ملأت الدنيا بوصفها ، وخلّدت فى التاريخ ذكرها . أقبل علينا أبا الطيب فان السيوف تهتزّ فى أغمادها شوقاً إليك ، ومجالس الأدب تكتم أنفاسها انتظاراً لقدومك . أقبل يا شاعر العرب . وإذا كانت فى نفسك منى غضاضة ،

فانى أقول لك الآن ما قلته لى من قبل :

وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه   محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

قرأ المتنبي الرسالة فتقاطرت الدموع من عينيه، ثم قبّلها مرات وقال : إننى لولا العوائق لطرت إلى مولاى سيف الدولة . ثم أطرق طويلا مفكراً مهموماً وهو يستمع لحديث نفسه وهى تقول : يطلبك الآن سيف الدولة بعد أن نبذك وازدراك وتغاضى عن إساءة أهله وعشيرته لك ، وبعد أن ضجر بإقامتك ومل ثواءك ؟ يطلبك بعد أن صرف وجهه عنك تيّاهاً ، وترك ابن خالويه يقذفك بالمفتاح فى وجهك دون أن يلقى منه نكيرا ؟ لا يا أبا الطيب لست ألعوبة فى أيدى هؤلاء الأمراء ينبذونها كلما ملوا اللهو بها. عرّفهم أبا الطيب أن نفسك أقوى من نفوسهم ، وأن كرامتك فوق كرامتهم ، وأنك إذا انصرفت نفسك عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل . على أنك قد لقيت من الشعر ما كفاك . ومن هؤلاء الأمراء المتقلبين ما تئن اليوم تحت أثقاله ، لا يا أبا الطيب، لا تذهب إلى حلب، فإن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين !

ثم اتجه إلى سعد الدولة وقال : يقيم مولاى عندنا أياماً ليستريح وربما تبعته إلى حلب . وأقام سعد الدولة بالكوفة حيناً، ولما عزم على الرحيل ودّعه الشاعر وألقى فى رحله قصيدة لأبيه من أروع ما نظمه فى سيف الدولة منها :

ليس إلاك يا على همام   سيفه دون عرضه مسلول

كيف لا تأمن العراق ومصر   وسراياك دونها والخيول ؟

أنت طول الحياة للروم غاز   فمتى الوعد أن يكون القفول ؟
قعد الناس كلهم عن مساء   يلك وقامت بها القنا والنصول
ما الذى عنده تدار المنايا   كالذى عنده تدار الشمول .
من عبيدى إن عشت لى ألف كا   فور ولى من نداك ريف ونيل

وعاد المتنبى إلى حياة الملل والفراغ ، وكان صديقه الحسن العلوى يكثر من ازدياره ويجتهد فى تسليته والترويح عنه ، فبينما كانا فى أحد الأيام بظاهر الكوفة إذ رأيا شاباً فى نحو العشرين قوى العضل وثيق البناء قصير القامة غليظ الوجه عابس نظرات العينين ، يبدو كأنه ساخط على الوجود ومن فى الوجود ، ووراءه طائفة من الأعراب فى أسمال وأخلاق وهم يسيرون خلفه فى رهبة ومهابة ، كما تسير العبيد خلف السيد المطاع . ومر الشاب ومن معه بالمتنبى وصاحبه فلم يزد على أن رفع بصره إليهما فى اشمئزاز ، ثم ابتسم ابتسامة سخرية وازدراء . فقال المتنبى :

ـــ من هذا الوغد الجافى يا سيدى الشريف ؟

ـــ هذا ضبة بن يزيد ، وهو فتى قرمطى شرير خبيث ، لو أراد الشيطان أن يتخذ لروحه مكاناً ما اختار لها غير جسمه . إن هؤلاء القرامطة يا سيدى لم يتمسكوا بمذهبهم عن رأى وعقيدة ، ولكنهم قوم صعاليك فتاكون نهابون ، عز عليهم أن يروا بعض الناس فى نعمة ويسر فأوغروا صدور الفقراء على الأغنياء ، وزينوا لهم نبذ طاعة كل حاكم ، وأحلوا لهم السلب والنهب والقتل وكل ما يندى له الجبين من رذائل . وقد وجدت دعوتهم قبولا

عند شذاذ الأعراب الذين كانوا يقتلون و يسلبون فى خوف وحذر ، فأصبحوا الآن يقتلون ويسلبون عن عقيدة ودين . هؤلاء القرامطة كارثة على الإسلام يا أبا الطيب .

ــ بلا شك ، وإنى أعتقد أن هذه الثورات ليست إلا فتناً سياسية ابتدعها أعداء العرب لإضعاف دولة العرب ، وألبسوها ثوب المذاهب الدينية .

ــ هذا صحيح . وضبة هذا يسيطر على فريق من صعاليك بنى كلاب ، وأظن أنهم يدبّرون خطة للهجوم على الكوفة ، وقد أخذ أغنياء المدينة يحتاطون لأموالهم ، ويعدون العدة لصدهم .

ــ سأمحو بسيفى هذا وساوس عقولهم إن كان لهم عقول .

ومرّت شهور ولا حديث للمدينة إلا غارات القرامطة وتخوف الناس من وحشيتهم وقبح أفاعيلهم ، وفى صباح أحد الأيام زار الحسن العلوى دار أبى الطيب وكان مضطرباً مهتاجاً ، فحيّاه المتنبي وقال :

ــ ما الخبر يا سيدى ؟ اجلس واهدأ قليلا .

ــ لن أجلس يا أبا الطيب . فإن الفرصة قد أمكنت من هذا الوغد ضبة ، وقد سيّر إلى بعض رجالى رسولا يطلب النجدة ويقول : إنهم قد ضيقوا عليه الخناق ، ولا يحتاجون إلا إلى بضعة فرسان للتغلب عليه وعلى أنصاره . قم يا أبا الطيب واركب معنا .

ــ هذا هو اليوم الذى كنت أتمناه على الأيام فقد صدئ سيفى فى غمده .

وركب أبو الطيب والشريف على رأس شرذمة من الفرسان ،

وما كادوا يصلون إلى ميدان المعركة حتى فر رجال ضبة شماطيط ، والتجأ إلى حصن منيع أحكم إغلاق بابه ، وأطل من نافذة ضيقة به وأخذ يسب ويلعن ويصيح :

— أين متنبيكم هذا الكاذب المنافق الجبان ؟ أين ابن عبدان السقاء حتى أبصق فى وجهه بصقة تذكره بالماء الذى كان يحمله أبوه ؟ أين هذا الدعى الفاجر لأعلمه أن امتشاق الحسام غير نظم الكلام ؟ فصاح الشريف :

— مرحى بمن يفر من الحراب ، ويقاتل بالسباب . إنك فى الحق أجبن من فأر . ولكنك فى الشتم أجرأ من أسد .

— إننى أقدم إذا كان الإقدام عزماً ، وأحجم إذا كان الإحجام حزماً . فصاح المتنبى :

— على شرط أنك لا ترى الإقدام عزماً فى يوم من الأيام .

— اخسأ يا دعى كنده . والله إن سيفى ليحن إلى رأسك ولكنه يخشى أن يدنس بدمائك .

فمال الشريف على المتنبى وقال : لقد جاوز الكلب الحد وبلغ الغاية فى الإقذاع ، اهجه يا أبا الطيب ، اهجه من صنف كلامه ونوعه ، ومزق عرضه كما تمزق النعل الخلق . فجلس المتنبى هنيهة ثم أخذ ينادى ضبة وهو فى حصنه بأقبح الألقاب ، وينشده قصيده قذرة الألفاظ والمعانى قذفه فيها بكل ما حققه من السباب ، ورماه ورمى أمه بما يتعفف عن ذكره أبذأ الناس لساناً . وعاد جماعة المحاربين ولم يبلغوا من ضبة مأرباً .

ولم يجرد أبو الطيب سيفه من قرابه . وقال أحدهم :
— لقد كانت قصيدة عجيبة ، وأغلب ظنى أنها ستثير ضجيجاً فى بنى كلاب . وقال ثان :
— لعلها تؤدب هؤلاء القرامطة وتصرفهم عن غيّهم . وقال ثالث :
— إن أخشى ما أخشاه أن تصل هذه القصيدة إلى أذن فاتك الأسدى . فالتفت المتنبى فى انزعاج وقال :
— ومن فاتك الأسدى هذا ؟
— فاتك الأسدى رجل قرمطى ، وهو خال ضبة بن يزيد ، وهو لص بطّاش مغامر يستحل دم الحجاج فى الحرام ، والقصيدة كلها قذف فى أخته وثلم لعرضها ، ولا أعتقد أنه يسكت عن هذا أو بعض هذا . فتهانف المتنبى ساخراً وقال :

إذا صلت لم أترك مصالا «لفاتك» وإن قلت لم أترك مقالا لعالم

واستمر أهل الكوفة فى خوف وذعر من القرامطة . وعلمت فاطمة زوج المتنبى بخبر ضبة ، وتساقط إلى سمعها بعض أبيات من القصيدة فتوجست شرًّا ، ولم تستطع أن تحادث زوجها فى الأمر .

وبعد أشهر تجددت ثورة القرامطة وتجمعوا حول زعمائهم بظاهر الكوفة ، وصمموا على الهجوم على المدينة ، فالتف كبراؤها حول أبى الطيب وجهزوا فصيلة من الفرسان والرجالة لقتالهم ، وقد كانوا أرسلوا إلى بغداد رسولاً لطلب المعونة ، وخرج أبو الطيب وعبيدة للقتال وحارب أياماً فأثخن فى أعدائه ؛ وانتهت المعركة ، وفر بنو كلاب ، وعاد الشاعر الفارس منصوراً

مظفراً . وجاء جيش بغداد بعد أيام فخلع قائده « دلير » على المتنبي وأجزل له العطاء ، وأنشده أبو الطيب قصيدة فى الميدان وقد كان ممتطياً جواده منها :

ذريني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا فى الصعب والسهل فى السهل
تريدين إدراك المعالى رخيصة ؟ ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وسارت القصيدة فى البوادى ، وسخط الأعراب على أبى الطيب لمدحه دلير الديلمى ، ومرت شهور ضاق فيها الشاعر بالكوفة وتمنى لو وجد إلى سواها منفذاً ، وفى يوم طرق بابه فارسان كان أحدهما يحمل رسالة من أبى الفضل بن العميد وزير عضد الدولة « بأرجان » يدعو فيها الشاعر إلى الرحيل إليه ، ويبذل له الوعود الحسان ، وكان الثانى رسولا من قبل سيف الدولة يلح عليه فى الذهاب إلى حلب ، ويغريه بكل وسائل الإغراء ، وقد فكّر المتنبي فى الرسالتين وأطال التفكير ، فمرة تدفعه عروبته إلى الرحيل إلى حلب وإلى السخط على الديلم وكل من يتصل بالديلم ، ومرة ينفر كما ينفر المهر الشموس ويأبى أن يعود إلى رجل أهين فى حضرته فلم يدفع عنه ، وترك أعداءه وحسّاده يثلبون عرضه حتى اضطر إلى قصد الأسود الذى هدم حياته وأهدر كرامته . وانتهى بالمتنبي العزم إلى أن يعتذر إلى سيف الدولة بأبيات ، وأن يقصد ابن العميد . وما كاد يلقى الخبر على زوجته حتى غشيتها غاشية من الحزن والتطير وصاحت :

ـ لا تذهب يا أبا الطيب . بالله عليك لا تذهب . إن أنفاسي لم تهدأ بعد مما لاقيت من فراقك الطويل، وإن خفقات قلبي لا تزال تأبى أن تظن أنك بجانبي ، ولو كنت ممن يتقون المخاطر ، ويتوقون المهالك ، لكان حزني لفراقك حزن امرأة غاب عنها زوجها وبقيت تمني نفسها بلقائه ، ولكنك رجل إذا ابتلعتك القفار تحديت الموت، وسخرت من الخطوب، ولم تبال بالأسود ولا بالحيات السود .

فربت أبو الطيب ذراعها في رفق وقال :

ـ لا تخافي يا فاطمة فالطريق آمنة، ولن أغيب عنك طويلا .

ـ إن الوساوس تقتلني يا سيدي ، وإني أشعر في هذه المرة ـ ولا أدري لم أشعر ـ بشيء يكاد يقف له قلبي ، فبالله عليك لا ترحل يا أبا الطيب .

ـ هذه وساوس شيطان يا فاطمة فاصرفيها عنك . ثم مد إليها ذراعيه في رفق فعانقته باكية مكلومة الفؤاد ، وأخذت تردد الحسرات ، وتزوده بالدعوات ، فاجتذب نفسه من ذراعيها وأسرع إلى الباب فرأى عبيده قد أعدوا كل شيء للرحيل . ففصل من الكوفة ومعه ابنه محسد وعبده مفلح في أول صفر سنة أربع وخمسين وثلاثمائة قاصداً أرجان وهو يقول :

شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتي قنص ... شهب البزاة سواء فيه والرخم

صحوة

بلغ شاعرنا الجوالة الرحالة بغداد بعد أيام ، ونزل بدار راويته علي بن حمزة وأغراه بالسفر معه إلى أرجان فلم يتردد غير أنه قال :

— كنت أتمنى أن تكون هذه الرحلة لأحد ملوك العرب .

— وأين هم الآن يا ابن حمزة ؟ إن خليفتكم المطيع لله والمطيع للديلم لم يسمع باسمي ، ولم يعلم أين مكاني .

— كنت أوثر أن ترحل إلى سيف الدولة .

— دعنا بالله من هذا الحديث فقد مجته نفسي .

واستراح المتنبي ببغداد أياماً ثم سافر منها إلى أرجان فنزل بالأهواز ، وأقام يومين في ضيافة أبي علي التنوخي وكان شاعراً أديباً أخبارياً ، وبينما كان يمر بإحدى ساحات الأهواز إذ سمع أعرابياً يهمس لصاحبه :

— هذا هو المتنبي الذي هجا ضبة ، والذي أقسم فاتك الأسدي أن يقتله ولو تعلق بأستار الكعبة .

— وأين منه فاتك الآن ؟ إن بينه وبين الأهواز بعد المشرقين .

— إن فاتكاً لا يتعجل الأمور ولكنه إذا عزم صمم ، وإذا صمم أصمى .

سمع أبو الطيب هذا فاضطربت له نفسه ، ثم ابتسم وقال :

قاتل الله فاتكاً هذا . لا يزال الناس يتحدثون فى أمرى وأمره .
ورحل عن الأهواز كاسف البال كثير الوساوس ، وما زال يغذ السير حتى أشرف على أرجان فرمى ببصره فرأى مدينة ضيقة الرقعة صغيرة الدور مقفرة ، فهز رأسه وقال :
— أأترك ملوك الأرض وسادات العرب لأسير شهراً إلى هذه القرية الخاوية على عروشها ؟ ولأمدح رجلا لو أنصف الزمان لسجد لعظمتى ؟ ثم زفر وقال : هكذا حكم عليك يا أبا الطيب أن تعيش مشرّداً ، وأن تترك دائماً اللباب لتتلهى بالقشور . فأخذ ابن حمزة بذراعيه قائلا :
— اهدأ يا سيدى فإنك محاط بجواسيس يعدون عليك أنفاسك ، لقد نصحتك ببغداد أن تلوى عنانك إلى حلب فنهرتنى فى غضب ونكر ، ثم تجىء الآن بعد أن قطعنا الطريق فتبكى على العرب وملوك العرب وتسخر من الفرس وبلادهم ؟ أين حزمك يا أبا الطيب إن هذه البوادر التى ينطق بها لسانك من غير تحرز هى التى أفسدت عليك كل شىء بحلب ، ودفعتك إلى الفرار تحت جناح الليل من مصر . لقد انتهى الأمر ، وقدمنا إلى فارس ، فيجب أن تعقل لسانك عن أن يبوح بكلمة سوء ، حتى إذا عشنا بها عشنا آمنين ، وإذا رحلنا عنها رحلنا مكرّمين .
— لقد كنت فائل الرأى عازباً عن الحق فى مجيئى إلى فارس وترك العودة إلى حلب ، وما لى وللديلم ؟ أضاقت بى رحاب الأرض ؟ أم سدت فى وجهى بلاد العرب ؟ أم عزّ من أبناء

مضر من يفهم العربية فجئت لهؤلاء الأعاجم أنشدهم شعراً عربياً ؟ إن قصدى لملوك الديلم عقوق لعروبتى وقومى . لقد قلت أبياتاً قليلة فى مدح دلير فقامت قيامة الأعراب وكادت تكون فتنة ، فكيف إذا تحدثت الدنيا بأن أبا الطيب ألقى خلفه ملوك العرب و رحل صاغراً مستجدياً ملوك الفرس يشيد بفضلهم ويسخر من العرب والعروبة ؟

— هذا والله ما كنت أخشاه ، حقاً إنك لرجل تعبث به الأهواء ، مرة تسخط على العرب ، ومرة تحن إليهم ، وهذه النفس الدوّارة القلقة هى التى تجر عليك الشر ، وتوردك موارد الهلكة . دعنا بالله نقيم بين القوم ما نقيم فى اطمئنان وهدوء بال .

— لن أقيم طويلا بين هؤلاء الأعاجم ، إننى أحن يا ابن حمزة إلى الشام ومشاهدها ، وأصبو إلى حلب ورحبتها ، وأود فى هذه اللحظة لو حملنى بساط سليمان إلى بساط سيف الدولة .

— كل شىء ينال بالصبر والحزم .

وبعث المتنبى إلى ابن العميد غلاماً يعلمه بقدومه ، وكان ابن العميد مضطجعاً فى دسته وحوله كبار رجاله وقد علم فى الصباح بقرب قدوم المتنبى ، فالتفت إلى نديمه العلوى العباسى :

— إننا ننتظر من أبى الطيب شعراً أبلغ وأروع مما قاله فى سيف الدولة وكافور .

ـــ حقًّا إنه كان ينثر درره فوق من لا يميزون الدر من الحصى ، أما وقد جاء ينشد « الجاحظ الثانى » الذى امتلك زمام الأدب ، ودانت له رقاب البلاغة ، فيجب أن يفكر طويلا قبل أن يقول ، وأن يبرز من بدائعه ما لم يمر بخيال شاعر . .

ـــ أتعرف أن الأديب أحياناً تفوته الإجادة إذا حرص على أن يجيد ؟

ـــ كيف يا سيدى ؟

ـــ إنه إذا حاول الإتقان التجأ إلى التعمق والتعمل ، وأدركته حال عصبية من التشكك تحول بينه وبين فطرته السليمة ، وقد لمح المتنبي الذى لم يفته شىء من خواطر النفوس هذا المعنى إذ يقول :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبع وعند التعمق الزلل

وبينما هما فى الحديث إذ دخل الحاجب يؤذن بقدوم المتنبى وأنه ينتظر بظاهر المدينة ، فوثب ابن العميد من مضجعه وأمر حجّابه وقواده باستقباله ، فسار الموكب وعاد بأبى الطيب بين مظاهر الحفاوة والإكرام ، ولما مثل بين يدى ابن العميد قام له وقرّب إليه كرسيًّا عليه وسادة من ديباج وقال : لقد شرفت بك بلاد فارس يا أبا الطيب ، ولقد كنا فى شوق إليك وإلى شعرك وأدبك ، وكنا نتلقط أخبارك ونتزود بما يطير إلينا من أشعارك بعد أن ملأت شهرتك الدنيا وشغلت الناس ، إن شعرك أصبح حديث كل لسان ، ومستشهد كل أديب ، فلقد ماتت إحدى

أخواتي فورد عليّ نيف وستون رسالة فى التعزية ما منها إلا وقد صدِّر بقولك .

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر   فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا   شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

فوقف المتنبى إجلالا لهذا الثناء وقال : أدبى يا سيدى قطرات من بحرك الفياض ، ولمحات من عبقريتك النادرة . فابتسم ابن العميد واهتزّ للمديح ، ثم سأله عما لقيه فى طريقه وما لاقاه فى سفره ، فأفاض فى وصف الطريق وما احتمله من عناء ونصب ، ثم أسرع فقال : وقد هوّن كل هذا رجاء مولانا والأمل فى لقائه ، وبحث فى كمه فأخرج درجاً كتب فيه قصيدة فوقف وأنشدها بين يدى ابن العميد ، وكان الجمع حاشدا ، وإعجاب السامعين شديداً ، والثناء على الشاعر متواليًا ، ووصله أبو الفضل بمائتى دينار وبسيف من أثمن السيوف وأغلاها ، وأفرد له داراً وخص به خدماً وعبيداً . وكان الشاعر يزوره فى كل يوم ويظهر الابتهاج والسرور ، ويحمد الله الذى وفقه إلى قصده . واقتنص ابن العميد الفرصة فقرأ على أبى الطيب كتابه الذى سماه « ديوان اللغة » وكان يعجب لحفظه وغزارة علمه بالأوابد والنوادر . وأراد يوماً أن يتبسط مع أبى الطيب ويداعبه فقال :

— إن لى نظرات ومآخذ على قصيدتك التى أنشدتنيها .

فدهش المتنبى وقال :

— ما هى يا سيدى ؟

ــ لقد قلت :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك ما لم يجر دمعك أو جرى

ثم قلت بعد هذا البيت :

كم غر صبرك وابتسامك صاحباً لما رآه وفى الحشا ما لا يرى

وهذا تناقض بين ، فقد أخبرتنا فى البيت الأول أن حبك وبكاءك ظاهران سواء أصبرت أم لم تصبر ، وسواء أجرى دمعك أم لم يجر ، ثم عقبت بأن صبرك خدع الناس وأخفى عليهم وجدك وهيامك . فأسرع المتنبى وقال :

ــ تلك حال وهذه حال ، غاية الأمر أن البيت الثانى متقدم فى الوجود على البيت الأول ، لأن هذا المحب فى أول أمره وقبل أن يضنيه الهوى ، ويغيـّر حاله الهيام ، كان يغر من رآه ، ولكنه بعد أن ألحّ عليه السقم لم ينفعه الجلد ولم يُغن عنه الصبر . فبدا هواه لكل ناظر .

ــ هذا طريق ملتو لا تدرج فيه العقول . ثم ماذا تقول فى مخالفتك بين مصراعى البيت الأول ؟ فقد أتيت فى المصراع الأول بإيجاب بعده نفى ، وفى المصراع الثانى بنفى بعده إيجاب ـ

ــ إنها مخالفة فى اللـّفظ لا فى المعنى يا سيدى ، لأن من صبر لم يجر دمعه ، ومن لم يصبر جرى دمعه . فقهقه ابن العميد وصاح : لن تُغلب يا أبا الطيب ، فان لك فى كل مضيق منفذاً يخفى على كل عين .

وذهب المتنبى إلى داره وقد آلمه النقد فالتقى با ابن حمزة وقال :

ـ لقد ألقى علىّ سيدك الرئيس اليوم درساً فى الأدب والنقد.
ثم أخبره بما دار فى المجلس فهوّن عليه الأمر وقال :
ـ إنها ممازحة أديب . فصاح المتنبى :
ـ لا أحب هذه الممازحات .
ـ لقد أكرمنا الرجل وأحسن مثوانا ، فيجب أن نغضى عن بعض ما لا نحب ، بل يجب أن نعترف له بالسبق فى ميدان الأدب فى شيء من المجاملة والتواضع .

وجاء عيد النيروز وهو عيد يحتفل فيه الفرس بقدوم الربيع ، وينثرون الورود فى كل مكان ، وينظمون من الأزهار عقوداً وتيجاناً ، فأعد المتنبى قصيدة من أروع الشعر وأبدعه خيالا وأحلاه رنين نغم ، هنأ فيها أبا الفضل بالنيروز واعتذر عن بعض تقصيره فى قصيدته الرائية وقد جاء فى القصيدة الجديدة .

نحن فى أرض فارس فى سرور ذا الصباح الذى نرى ميلاده
عظّمته ممالك الفرس حتى كل أيام عامه حسّاده
ما لبسنا فيه الأكاليل حتى لبستها تلاعه ووهاده
عند من لا يقاس كسرى أبو سا سان ملكاً به ولا أولاده
عربى لسانه فلسفى رأيه فارسية أعياده

وقضى الشاعر شهرين فى ضيافة ابن العميد محفوفاً بصنوف الإكرام والرعاية ، ولكن نفسه الملول أبت عليه أن يركد فى مكان كالماء الآسن ، فاغتنم لقاء الرئيس واستأذنه فى الرحيل ، ولكن ابن العميد فاجأه بأن عضد الدولة ملك شيراز أرسل يلح

فى قدومه إليه ، ويتشوف إلى لقائه ، وأنه بعث إليه بهدايا لم تظفر بمثلها الملوك . فاضطرب المتنبى وقال :

— بالله يا سيدى دعنى من هؤلاء الديلم . إننى شاعر عربى وما أنزل الله الشعر على قلبى إلا لأكون لسان العرب ، وعنوان العرب ، ومعيد مجد العرب .

— إن عضد الدولة رجل ديلمى النسب حقًّا ، ولكنه عربى النفس عربى النزعة ، وهو أديب شاعر يناصر العلم ويرفع شأن دولة العرب ، وسيصل إليك من عطائه وصلاته فوق ما يتوهم خيال شاعر .

— بالله عليك يا سيدى لا تغرنى بهذه الوعود ، فإنى ملق من هؤلاء الملوك ، ملدوغ من جحورهم مرات . ولولا مطامحى ما أصغيت إلى أكاذيبهم ، ولعشت فى خير حال ، أقصد الواحد منهم بعد الآخر ، فأتوجه إليه بآيات خالدات من الشعر الذى تحسده لآلئ البحار ، فإذا نال منى ما يبتغى تنكّر لى ، وصرف عنى وجهه فى صلف وكبرياء .

— إن عضد الدولة ليس من هذا الصنف يا أبا الطيب ، إنه رجل خُلق ليكون ملكاً ، وملك خلق ليكون رجلا ، فلو أقمت عنده ما أقمت لكان فى يوم وداعك أحفى منه بك فى يوم استقبالك .

— ولكنى ياسيدى رجل ملول شديد الضجر مولع بالنقلة ، وهذا لا يرضى هؤلاء الملوك الذين يلذ لهم احتباسى على الرغم منى ، فإذا قبلنى على أن أقيم عنده كما أشاء ، وأرحل عنه متى أشاء توجهت إليه .

وكاتب ابن العميد عضد الدولة بشروط المتنبى فقبلها فشد

الرحال إلى شيراز كارهاً ، وقد زاد به الحنين إلى زوجه ، وعادت إليه أطياف للشام وحلب ، ومر فى طريقه بشعب « بوان » وهو غيضة كثيرة الأدواح الملتفة المزهرة ، والأشجار المثمرة ، والمياه المتدفقة ، وهو أحد متنزهات الدنيا الأربعة ، وقد أوحى هذا الشعب إلى أبى الطيب بروائع المعانى ، وهاج فى نفسه ذكريات دمشق والعروبة وما للعرب من كرم ومجد حين يقول :

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيهـا سليمان لسار بترجمـان
طبت فرسانا والخيل حتى خشيت وإن كرمن من الحران
غدونا تنفض الأغصان فيهـا على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الحر عنى وجئن من الضياء بما كفانى
وألقى الشرق منها فى ثيابى دنانيرا تفر من البنان
لها ثمر تشير إليك منه بأشربة وقفن بلا أوانى
وأمواه تصـل بها حصاها صليل الحلى فى أيدى الغوانى
ولو كانت دمشق ثنى عنانى لبيق الثرد صينى الجفان

ثم عاوده الحنين إلى زوجته وإلى الشام عامة فقال :

بشامية طالما خلوت بهـا تبصر فى ناظرى محياها
فقبلت ناظـرى تغالطنى وإنمـا قبلت به فاها
فليتها لا تزال آويـة وليتـه لا يزال مأواها
كل جريح ترجى سلامته إلا فؤادا رمتـه عيناها
ما نفضت فى يدى غدائرها جعلته فى المـدام أفواها

ولما كان على نحو أربعة أميال من شيراز أرسل عضد الدولة وجوه دولته لاستقباله ، وبلغ القصر فى هذا الموكب الحافل فأحسن عضد الدولة لقاءه ، وأنشده أبو الطيب قصيدة نال عليها أجزل الصلات وأنفس الهدايا . وكان من شهود الحفل أبو على الفارسى وعبد العزيز الجرجانى ، وهما من كبار رجال اللغة والأدب ، وأقام فى ذرا ممدوحه زهاء ثلاثة أشهر كان فيها موضع الإكرام والحفاوة ، ولكنه كان ضجراً كثير القلق ، يمل النعيم وينزع إلى المخاطر ، ولقد كان يعبر عن نفسه حقاً حين قال :

أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنان

فلما طغت عليه السآمة دخل على عضد الدولة واستأذنه فى السفر وألح ، ولم يجد الرجل بداً إلا أن يأذن له ، وعاد المتنبى إلى داره فأخبر ابن حمزة ومحسداً بعزمه ، وأمر مفلحاً أن يستعد بعد ثلاثة أيام ، فقال مفلح :

سأعد كل شىء ياسيدى غير أنى أود أن أخبر مولاى بأمر يزعجنى ، وقد يكون تافهاً ، وقد يكون من وساوس نفسى .

— ما هو ؟

— رأيت قبل أن نرحل من أرجان أعرابياً يطوف حول دارنا ويكثر التلفت والنظر ، فلم آبه له ولكنى عدت فرأيته هنا بالأمس فسألته عن شأنه فقال : إنه رجل فقير رحل من العراق إلى فارس طلباً للرزق ، ولكنه لم يجد عملا ، ثم سألنى عن موعد عودة سيدى إلى العراق ، فلما قلت له إنى لا أعلم ، وأظهرت الريبة

فى أمره ، قال : إنه لا يملك راحلة ، وإنه يطمع فى أن يحمله سيدى معه إلى العراق ، وإنه لذلك يسأل عن موعد سفره ، فزجرت الرجل وأبعدته عن الدار .

ــ لا أرى من بأس فى أن نحمل الرجل. فقال ابن حمزة :

ــ لا تتسرع يا أبا الطيب ، فقد يكون الرجل نذير شر ، وقد يكون جاسوساً عليك من أعدائك بعثوا به إلى فارس ليخبرهم بيوم رحيلك إلى العراق .

ــ هراء . إننى أتسلح بشجاعتى لا أبالى بمن علم بمقامى أو رحيلى . على أن المتنبى قد ساوره شىء من الخوف . وطافت بنفسه ذكريات ضبة وخاله فاتك ، ولكن هذا الخوف لم يدم طويلا ، فهز كتفيه فى استخفاف ، ثم طلب إلى مفلح أن يعد ورقاً وأقلاماً وقام إلى حجرته فكتب قصيدة يودع بها عضد الدولة ، وركب إليه فى الصباح وأنشده القصيدة فأجزل عطاءه وأحسن توديعه . وبينما كان المتنبى وصحبه وعبيده يستعدون للرحيل إذ لمحو فارساً على جواد أشهب يسبقهم إلى طريق العراق ، فصاح مفلح :

ــ هذا هو الأعرابى الذى كان يحوم حول دارنا بأرجان فقال محسد :

ــ ويل للوغد . حقاً إنه كان يترقب موعد سفرنا ليعرف الطريق الذى نسلكه . وقال ابن حمزة :

ــ هذا هو الذى ظننته . وامتطى المتنبى جواده وهو يقول :

نزل يا بعد عن أيدى ركاب لها وقع الأسنة فى حشاكا
وأنى شئت يا طرقى فكونى أذاة أو نجاة أو هلاكا

قتل

فى أحد أرباض الكوفة ، وفى ليلة حالكة السواد شديدة البرد ، اجتمع عدد من الرجال يزيد على العشرة بدار مجاشع الكلابى ، وجلسوا حول النار يصطلون . وكان بالحجرة سراج خافت النور كاد يجف زيته فأخذ يخفق كأنه مريض دنف دهمه الفواق قبل أن يسلم الروح . وكان جو الحجرة يوحى بالحزن والفجيعة والدمار ، ولو كشف عن البصر الحجاب لرأى فوق رءوس هؤلاء المقعين حول النار أرواح الشياطين تحوم فى مرح ، وتصفق بأجنحتها فى جذل وشماته . وكلما التمع السراج كشف من القوم وجوهاً عابسة شرسة شريرة جرحتها السيوف وخرقتها السهام ، وأعيناً يتأجج فيها الغدر ، وتضطرم الأحقاد . رفع مجاشع الكلابى رأسه وقال :

— لقد مر بنا حين من الدهر لم نجرد فيه سيفاً ، ولم نركض جواداً ، حتى كدنا نفقد صفات البطولة ، وننام على الطوى ، ونعلل صغارنا بالماء . فقال شمر بن وهب :

— كنا نسقط على مدينة الكوفة بين الحين والحين ، ولكن أهلها أخذوا لأنفسهم الحيطة وأعدوا جيشاً مرابطاً . واستعانوا ببعض جنود بغداد ، فكلما أرسلنا عليهم غارة شتتوا شملها وأثخنوا فى رجالها . فقال مجاشع .

— وكلما توالت هزائمنا تفرق عنا الطامعون فى الغنائم ؛

حتى أصبحنا قلة ضئيلة خائرة العزائم. فأسرع فهد القيسي قائلا :
— وكانت قاصمة الظهر تلك الهزيمة التي رمانا بها ذلك المتنبي الشاعر الدعي ، والله لو ظفرت به لشربت دمه .
— صدقت يا فهد ، ولن تفوتنا حياته ولو كانت في قمقم سليمان . أتدرون لم أمرنا ضبة بن يزيد بالاجتماع هنا الليلة؟ فقال شمر :
— لا أدري ، ولكني علمت منذ أيام أن خاله فاتكاً قد يزور الكوفة في طريقه إلى واسط .
— فاتك؟ إنه رجل أي رجل . ولعله يهدينا إلى صيد جديد ، فقد ظمئنا إلى الدماء ، وصفرت أيدينا من المال . ثم سكت القوم هنيهة فسمعوا عن بعد عواء كلب جائع مقرور اخترق صوته سواد الليل حزيناً مؤلماً ، كأنه ندب الثواكل ، ولم تمر إلا لحظات حتى سمع طرق خافت . فقام مجاشع ففتح الباب وعاد معه فاتك الأسدي وضبة ، فقام القوم لتحيتهما في شيء من الرهبة والمهابة ، وكان فاتك في الثلاثين من عمره ، طويل القامة متين العضل متناسق التكوين شديد السمرة عربي الملامح براق العينين في وميض يكاد يصرع من يراه ، وكان كث اللحية وقد وقف شعرها كأنه شوك قنفذ . حيا فاتك الجماعة في ابتسامة كأنها كشرة الأسد ثم قال في لهجة العاتب :
لقد جئت الليلة أيها الإخوان لأمر ذي بال أردت أن أحدثكم فيه ، ولو أن واحداً منكم هزته الأريحية وثارت في نفسه الغيرة لقبيلته وقومه لأغناني عن تجشم الطريق واجتياب القفار ،

كلكم أهل لضبة ، وكلكم قبيله وأنصاره ، وإذا مس عرض ضبة فقد مست أعراضكم جميعاً ، وإذا طعن شرفه فقد أصابتكم الطعنة جميعاً ، ولقد ترامت إلى أخبار أقضّت مضجعي ، وأنبتت الشوك فى وسادى ، وتناقل الرواة أبياتاً قذرة من شعر نجس لطخ به ذلك الشاعر الدعى المنبوز بالمتنبي ابن أختى ضبة ، يا للهول . ويا للعار . إنه لشعر تتعفف البغى عن أن تدنس فمها بكلمة منه ، ويأنف مجّان الحانات من أن يلقوا إليه سمعاً ، فقد ولغ هذا الكلب الفاجر فى عرض أختى فلم يترك كلمات من مستقذرات اللغة حتى وصمها بها ، ولم يدع سهماً مسموماً بالفحش والإقذاع حتى صوّبه إليها ، وعجيب أن يقال هذا الكلام الدنس فتتناقله الصبيان ، ويتنادر به المجان ، وتسير به الرواحل من بلد إلى بلد ، وتملأ ريحه المنتنة جو الصحراء ، ثم لا تثورون ولا تغضبون . ثم لا تروون سيوفكم من دماء هذا الغوي الأفّاك . ثم لا تمحون هذا العار عن أنفسكم وعن قبيلتكم بضربة فيصل . لقد أصبحتم متندّر القبائل ، وسخرية العرب جميعاً ، ولقد جئت أيها الإخوان لأغسل العار عن نفسى وعنكم ، لقد جئت لأجرد سيفاً وأصون شرفاً ، لقد جئت لأقطع لسان الأفعى وأهشم أنيابها . مرحى . مرحى . يا لضيعة العرب . شرف أختى يمرّغ فى التراب فى كل مجلس وفى كل سامر ، وأخوها فاتك الذى ترتجف لهوله الصحارى ، ويخلع اسمه كل قلب ، يجلس فى عقر داره هانئاً رضياً ، لا يأخذ لها بثأر ولا يدفع عنها بيمين ؟ شرف أختى يداس بالنعال وأهلها

ينظرون واجمين ذاهلين ؟ فصاح مجاشع :

ــ غداً نذهب إلى الكوفة ونذبحه ولو كان بين ذراعي أسد .

فأجابه فاتك حزيناً :

ــ إنه ليس بالكوفة ، إنه رحل منذ شهر أو أكثر إلى بلاد فارس .

ــ نذهب إلى فارس ونقتله ولو كان فى حماية كسرى أنو شروان . وهنا وقف شمر بن وهب وقال :

ــ الرأى عندي يا سيدى أن يرحل أحدنا إلى فارس وأن يبحث عنه حتى يصل إلى مكانه ، ثم يوجر فيه خنجره . فقال فاتك :

ــ لقد قاربت الصواب فإنى أوافقك على أن يسافر رجل منا إلى فارس ليعرف مكانه ، ويرقبه عن كثب ، حتى إذا رحل عائداً إلى العراق أسرع إلينا بدير العاقول فأخبرنا بطريق مروره فسرنا نحوه ووثبنا عليه ومزقناه تمزيقاً ، فقال ضبة :

ــ ولم لا نقتله بفارس ونستريح من مشقة السفر ومظنة فراره ؟

ــ ذلك لأننا لا نريد أن نكتفى بسفك دمه ، وإنما نريد فوق ذلك أن ننهب كل ما سيعود به من فارس من أموال ونفائس وذخائر وتحف أغلى من أن تقدر بثمن ، وأعز من أن يحوزها قصر ملك . فصاح القوم جميعاً :

ــ نعم الرأى يا فاتك ، إنك لرجل ملقن .

واتفق القوم على أن يرحل شمر بن وهب إلى فارس ، وأن يضم ضبة إلى جماعتهم نحو عشرين لصاً من فتاك الأعراب ، وأن يسيروا جميعاً تحت لواء فاتك إلى دير العاقول لينتظروا فريستهم هنالك ،

وليتربصوا للقتل والغنائم. وتفرق القوم على أن يلتقوا في موعد ضربوه.

وخرج المتنبي من شيراز في نحو العشرة من عبيده ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والثياب والكتب ونفائس الهدايا، وسار الركب في جو باسم الصباح رفيق النسيم، وكان المتنبي على غير عادته منبسط أسارير الوجه إلى ما يقرب من المرح، حتى إنه كان يمازح ابن حمزة ويصغي في أناة ورفق إلى حديث محسد، ويداعب مفلحاً ويدعوه بكافور الأسين. وقد تكون هذه النشوة الطارئة لأنه استطاع أن يتخلص من الديلم من غير اصطدام أو عربدة على خلاف عادته في مفارقه كل أمير أو ملك، وقد تكون لأنه أنفذ نفسه ولسانه من مدح غير العرب والإشادة بمجد غير مجد العرب، فقد كان شيء من ذلك يؤلم نزعته العربية، ويكدر عليه صفو حياته. وقد تكون لأنه عاد إلى وطنه بهذه الأحمال والأموال والكنوز التي لم يظفر بمثلها شاعر منذ هلهل ابن ربيعة الشعر، وقد تكون لأنه وقد طالت عليه الغربة واشتد به الحنين يشعر اليوم بأنه عائد إلى أهله وزوجته التي لا يزال يحس بخفقات قلبها في صدره ساعة توديعه وبتناثر دموعها فوق خديه. قد تكون هذه النشوة الطارئة لهذا جميعه أو لشيء منه أو لشيء لم نعرفه من نزعات هذه النفس الضخمة المليئة بالأسرار. وحينما لمح ابن حمزة هذه البارقة العابرة التي قليلا ما لمعت بهذا الوجه الغائم العبوس أراد أن يغتنمها فقال :

ـ ما رأيك يا أبا الطيب فى سيف الدولة ؟

ـ عربى قصير الباع طويل الأمل . وعيبه أنه إذا منّ دنّ .

ـ وماذا ترى فى كافور ؟

ـ غراب حوله رخم وبوم .

ـ وكيف تصف المهلبى ؟

ـ هر رأى فى مرآة كاذبة أنه أسد .

ـ ومعز الدولة ؟

ـ شبح للجهل والبخل والشراسة .

يحسبه الجاهل ما لم يعلما شيخاً على كرسيه معمما

ـ وماذا تقول فى ابن العميد ؟

ـ رجل ما زال يغرى الشعراء بمدحه بالأدب والكتابة حتى اعتقد آخر الأمر أنه أديب كاتب .

ـ وعضد الدولة ؟

ـ تاج من ذهب فوق رأس من خزف

ـ وما رأيك فى عبد العزيز الجرجانى ؟

ـ أراد أن يفلسف الأدب فشوه الأدب وأضعف الفلسفة .

ـ وماذا ترى فى أبى على الفارسى ؟

ـ أعجمى حاول أن يطوع اللغة إلى أصول وهمية هى أبعد فى الخيال من شعرى .

ـ وكيف ترانى ؟

ـ فيك ما يجعلك لسان نفسك ، ولكنك تأبى إلا أن

تكون لسان غيرك .

فضحك ابن حمزة وابتسم المتنبي ولكن هذا الابتسام طار من وجهه بعد قليل وخلفته سحابة مظلمة من الحزن والكآبة ، فزفر وقال :

وما الموت إلا سارق دق شخصه   يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ثم أخذ يردد :

نعد المشرفية والعوالى   وتقتلنا المنون بلا قتال

وهنا قال ابن حمزة :

ما هذا الشعر القاتم يا أبا الطيب ؟ وما لنا ولذكر الموت والمنون ؟

ـــ الموت يا ابن حمزة راحة الحزين وموئل اليائس . كانت لى آمال ومطامح يا ابن حمزة فأين هى ؟ أرأيت هذه الذرات التى تتراقص فى أشعة الشمس والتى يسمونها بالهباء ؟ هذه هى آمالى . أرأيت هذه الحفرة هناك ؟ إنها كانت بئراً فطمرتها الرمال وغطتها السوافى ، هذه هى آمالى . أرأيت إلى هذا النسيم الذى إذا مددت إليه يدك لتقبض عليه فر من خلال أصابعك ؟ إنه يا ابن حمزة آمالى . كانت لى آمال ، وكانت لى مطامح ، فعبثت بها يد الأيام ، وطوحت بها الطوائح . وكانت لى أحلام ناضرة باسمة فتيقظت بعد نهاية العمر فلم أجد نضرة ولم ألمح ابتساماً ، كنت أطمح إلى أن أكون رجل الدنيا فأبت على الدنيا ، وكنت أطمح إلى أن أكون ملكاً فنبذتنى العروش وسخرت منى التيجان . وكنت أقول :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ   كأنهم من طول ما التثموا مرد

فلم أجد مشايخ إذا وجدت الحق ، ولم أجد الحق إذا وجدت المشايخ ، وأنا اليوم أعود إلى دارى بالكوفة شيخاً هما حطمته الأيام وثلمته الحوادث .

— ما هذه الخواطر السود يا أبا الطيب ؟ لقد أعطتك الدنيا من الجاه والمال وبعد المنزلة فوق ما تمتد إليه أعناق الشعراء .

وبلغ الركب الأهواز بعد عشرين يوماً فحطّ الرحال ليستريح وأسرع أبو الحسن السوسى عامل الأهواز فاستقبل المتنبي وأضافه أياماً ، ثم استأنف الرحيل إلى واسط ، وفيها كتب عنه ابن حمزة بعض قصائده فى عضد الدولة واعتذر عن التخلف عنه لمرض نزل به ، فسار الركب قاصداً إلى بغداد ثم الكوفة ، ومر المتنبي ببلدة تسمى « جَبُّل » فنزل ضيفاً على أبى نصر محمد الجبلى فأحسن الرجل وفادته وأكرم مثواه .

أما عصابة فاتك فقد أحكمت إنفاذ مؤامرتها ، ورحلت عن الكوفة على النحو الذى دبرته ، وربضت بدير العاقول تنتظر قدوم المتنبى ، فأسرع إلى القوم شمر بن وهب جاسوسهم بفارس وأخبرهم برحيل المتنبي وبأنه كان يرقب طريق سيره ، وبأنه رآه بالأمس وهو يحط رحاله بجبل ، فتواثبوا إلى خيولهم وأخذوا يجوبون الطريق بين دير العاقول وجبل .

وحينما عزم المتنبى على الرحيل جلس إليه أبو نصر وقال :

— على أى شىء أنت مجمع يا أبا الطيب ؟

ـ لقد عزمت على الرحيل مساء اليوم. وسأتخذ الليل مركباً فإن السير فيه يخف على .

ـ نعم الرأى يا أبا الطيب. ولكنى أرى أن يكون معك جماعة من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواضع المخيفة. فقطّب المتنبي وجهه وقال :

ـ لِمَ تقول هذا يا أبا نصر ؟

ـ إنّما أردت أن تستأنس بهذه الجماعة فى الطريق فصاح فى غضب :

ـ أما ونجاد السيف فى عنقى ، فما بى حاجة إلى مؤنس غيره . فأجابه فى بمضض .

ـ الرأى لك يا أبا الطيب ، وإنما كنت لك نصيحاً .

ـ إن تلويحك يا أبا نصر ينبئ بشىء ، فعرّفنى جلية الأمر . فزفر الجبلى زفرة طويلة وقال :

ـ جلية الأمر يا سيدى أن فاتكاً الأسدى كان عندى منذ ثلاثة أيام ، وهو يتّقد عليك غضباً لأنك هجوت ابن أخته ضبة ، وقد بدرت منه بوادر توجب عليك الاحتراز والتيقظ ، ومعه نحو ثلاثين من بنى عمه يأكلون النار ويحطمون الحجر الأسود. فالرأى يا سيدى أن تأخذ معك عشرين رجلا يسيرون بين يديك إلى بغداد . فانتفخت أوداج المتنبى من الغيظ وصاح :

ـ لا والله لا أرضى أن يتحدث عنى الناس بأنى سرت فى خفارة أحد غير سيفى . فأسرع أبو نصر يقول وقد نفد صبره :

ـــ يا هذا ، إنى سأوجه معك قوماً من قبلى يسيرون بسيرك ، ويكونون فى خفارتك .

ـــ لا والله لا فعلت شيئاً من هذا . أمن عبيد العصا تخاف على؟والله لو أن مخصرتى هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد كلهم معطشون بخمس، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات، ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده . معاذ الله أن أشغل فكرى بهم لحظة عين، إنهم كلاب عاوية يا أبا نصر، ولن يمسوا شعرة منى .

ـــ قل إن شاء الله يا أبا الطيب .

ـــ هى كلمة مقولة لا تدفع مقضياً ، ولا تستجلب آتياً .

وركب المتنبى ومعه عبيده وذخائره فى ليلة حالكة الظلام ، وأخذ طريقه حتى حاذى النعمانية ، ثم أغذ السير حتى قارب الصافية وبينها وبين بغداد ستة عشر فرسخاً . وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة خرج عليه فى هذا المكان فاتك ورجاله فقاتلهم الشاعر قتال الأبطال ، حتى قُتل جميع ... كانوا معه وبقى وحيداً يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال ، وقد نال منه الضعف وأخذ منه الوهن ، فحمل عليه فاتك وطعنه فى جنبه الأيسر فأسقطه عن جواده فارتمى على الأرض ... وأخذ يجود بأنفاس قصار تزاحمها حشرجة الموت ويردد :

ردى حياض الردى يا نفس واتركى

حياض خوف الردى للشاء والغنم

إن لم أذرك على الأرماح سائلة ... فلا دعيت ابن أم المجد والكرم